221

HARLEQUIN

روايات أحلام

مدلّلة

جيسيكا هارت

www.elromancia.com
مرمورية

المكتبة الوطنية

مدلّلة

أحس ماكس فالكونر أنه لم يظلم كايرو حين حكم عليها بأنها فتاة ثرية أفسدها الدلال . أولم تحتل عليه وتجبره على اصطحابها عبر الصحراء الإفريقية القاسية ! لكن العثور على المكان المناسب لتصوير إعلان كان يعني الكثير لكايرو . فمن دونه تنهار حياتها المهنية ومستقبل والدها أيضا .

لكن ماكس لم يكن يعلم بذلك . كل ما كان يراه هو امرأة تتصرف كأنها خرجت للتو من صفحة مجلة أزياء راقية . . . ولم يستطع أن يتحمل مرافقتها . . فهل تستطيع كايرو المدللة تحمل أوامر هذا الرجل الذي جعلها تجرف الرمال وتحمل الخيم وتسير في قيظ الصحراء . والأسوأ من هذا أنها مجبرة على مشاركته فنجان الشاي الوحيد . . . والمصير الوحيد !

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-046-X

جيسيكا هارت

تنقلت جيسيكا هارت من مهنة إلى أخرى، قبل أن تبدأ الكتابة لتؤمن تكاليف إجازة في التاريخ تنوي تحصيلها.

عملت في البداية كنادلة ثم كمساعدة منتج مسرحي، وطاهية وسكرتيرة تحرير لنشرات الأخبار، كما شاركت في بعثات إلى أميركا ودرست اللغة الإنكليزية. عملت أيضاً في بلدان مختلفة مثل فرنسا وأندونيسيا وأوستراليا والكاميرون.

تعيش جيسيكا هارت اليوم في شمال إنكلترا حيث تقتصر هواياتها على تناول المأكولات الشهية والمشروبات اللذيذة والسفر، متى استطاعت ذلك، إلى الأماكن التي تجد فيها طعاماً لذيذاً، كذلك إلى البلاد الصحراوية والمدارية.

١ ـ انزلي من علياءِك

ـ ماكس فالكونر؟ أنت محظوظة! إنه يقف هناك.

تبعت نظرات كايرو إشارة الإصبع إلى حيث رأت رجلاً مغبّراً يفرغ شاحنة مكسوة بالغبار أيضاً.

لم ينتبه لوجودها، بل توقف ليخلع قبعته، ويمسح العرق عن جبينه بساعده، في حركة جعلت كايرو تدرك بأنه يشعر بالحر والتعب مثلها تماماً.

فراحت عيناها الخضروان تتفحصانه بنظرات مشككة.

يستطيع ماكس فالكونر مساعدتك... هذا ما قاله الجميع.

لن تجدي مرشداً أفضل منه، فماكس يعرف النجد زاوية زاوية.

كل ما سمعته كايرو، جعلها تتساءل حول شخصية ذلك الرجل الإنكليزي الذي اتخذ له الصحراء موطناً، فتصورته سراً يفيض حيوية رومنسية. لكن عندما راحت تراقبه وهو يفرغ الشاحنة بطريقة مدروسة، لم تستطع سوى أن تشعر بوخزة من خيبة الأمل: لم يكن هذا الرجل رومنسياً إطلاقاً، بل بدا متعباً وصعب المراس.

ـ هل أنت واثق من أنه هو نفسه؟

فأجاب بابتسامة عريضة: «ليس هناك سوى ماكس فالكونر واحد».

كبحت كايرو آهة. لا شيء يسير كما توقعته في هذه الرحلة... لم تجد في المدينة دليلاً يرشدها، ولكن عندما أخبروها عن عالم الجيولوجيا المتخصص في طبقات الأرض، ارتفعت معنوياتها مرة أخرى. من الأفضل لها حقاً أن تحصل على مرافق ودود، يحسن الإنكليزية في هذه الرحلة. ولكن ها هي تفقد الاهتمام

مجدداً وهي تتفحص ماكس فالكونر الحقيقي. فهو لا يشبه أبداً ذلك الشاب الأنيق والظريف الذي كانت تتصوره. فقد كان يحيط به جوّ من الصرامة، والتزمت، وضبط النفس. شعره البني كان عادياً تماماً، وما استطاعت رؤيته من وجهه بدا لها حذراً متحفظاً. وتبدّدت آمال كايرو في مرافق ساحر الشخصية تستطيع أن تنسجم معه.

ومع ذلك، ليس للشحاذين أي خيار، كما يقول المثل. إن عليها أن ترتقي ذلك النجد المرتفع وما دام ماكس فالكونر هو الوحيد الذي يمكنه أخذها إليه، عليها إذن أن تقبل به.

اعتدلت في وقفتها وهي تبتسم شاكرة، ثم اخذت تخطو بحذر على الرمال والحجارة متجهة نحو ماكس. نظر إليها المهندس آسفاً لذهابها. فالفتيات الجميلات الهادئات نادراً ما يأتين إلى مخيم صحراوي بدائي كهذا.

ولكن بالرغم من مظهر كايرو الهادىء، فهي لم تشعر بالهدوء. فقد كانت حرارة الجو ساحقة، وللمرة المئة تقريباً، تمنت لو أنها في ربيع لندن الرطب. قيل لها إن ماكس فالكونر أمضى في «شوفرار» سنوات، وإنه اختار العيش هنا، فلم تستطيع كايرو أن تصدق أن شخصاً يريد أن يعيش في مثل هذا الجحيم القاحل. فهي لا ترى هنا سوى أميال لا تحصى من صحراء مترامية. سارت وهي تفكر مكتئبة في شوارع المدينة الأنيقة، حتى نسيت ماكس. وما لبثت أن أدركت فجأة أنه وقف وأخذ ينظر إليها وهي تتقدم نحوه، إلى أن تقابلت نظراتهما، فترنحت.

لمعت عيناه بشدة في وجهه الذي أحرقته أشعة الشمس، ما جعلها تقاوم رغبة أخذت تدفعها إلى التراجع. لم تستطع أن تعرف لون عينيه، كل ما عرفته أنهما كانتا لا ماليتين وباردتين للغاية، فراح قلبها ينقبض بقلق.

استدار ماكس عائداً إلى الشاحنة، يريحها من نظراته الجليدية تلك، فأخذت كايرو نفساً طويلاً لا إرادياً، وشعرت بنفسها تهتز بشكل غريب. كان في عينيه شيء يرغمها على إعادة النظر في رأيها فيه. فتلك الصرامة التي لاحظتها عن بعد تخفي هالة من القوة المكبوتة. لم يكن هذا عالماً جيولوجيا هادئاً، وإنما

رجلٌ صلبٌ شديد التأثير في النفس.

لكن، عندما شكت بسوء طبعه، لم تكن مخطئة أبداً. فقد كان حاجباه مقطبين وفمه متوتراً. وبعد تلك النظرة، تجاهلها ومضى ينزل الأحمال من الشاحنة بتمهل غريب إقشعر له جلدها.

ـ هل أنت السيد ماكس فالكونر؟

بدا صوتها أكثر حدة مما أرادت. فقد أخرجها تأثير عينيه عن ارادتها. لا بد أن السبب في ذلك وجهه الأسمر، لكنها لن تدع ذلك يرهبها!

رفع ماكس صندوقاً وضعه على الأرض بحذر، قبل أن يجيب:

ـ المفروض أن «كريس» قد أخبرك من أكون، وإلا لما أرسلك إليّ. لماذا تزعجين نفسك بسؤاله إذا كنت لن تصدقيه؟

كان غريباً أن يبدو صوته بهذا العمق والأناة... بهذه البرودة.

ـ لماذا لا تقتصر على قول نعم أو لا؟

أجابت بذلك بحدة، فقد أمضت يوماً شاقاً متعباً وهي تبحث عن رجل اتضح أنه سيء وغير ملائم. يا ليتها غير مضطرة لطلب تلك الخدمة منه!

تنفست بعمق، ثم رفعت عن عينيها نظاراتها الشمسية لكي يعرف إلى من يتحدث، وأرغمت نفسها على القول برقة: «إسمي «كايرو كينغسوود».

أغمضت عينيها في وهج الشمس، لكنها رأته يرمقها بنظرة ثاقبة لا تدعو إلى الارتياح قبل أن يعود إلى الشاحنة المغبرة. ومن أعماق ذاكرتها، شدها شيء بعنف.. شيء قد يكون معرفة سابقة بهذا الرجل. لكنها ما لبثت أن أزاحت هذه الفكرة من رأسها، فهي واثقة من أنها لا يمكن أن تنسى رجلاً بمثل فظاظة ماكس فالكونر، إذا كانت عرفته حقاً! وها هو ذا يستمر في رميّ صناديقه وكأنها غير موجودة! حتى أنه لم يهتم حين عرّفته بنفسها. أخيراً، حين أصرّ على صمته قالت:

ـ لدي مشكلة صغيرة، وقد أخبرني الجميع بأنك الوحيد القادر على مساعدتي.

رفع ماكس آخر صندوق من الشاحنة، ثم صفق بابها الخلفي ومسح يديه

ببنطلونه الكاكي. وأخيراً، نظر إلى كايرو: «ومن هم «الجميع»؟».

أصبح لون عينيه أخضر رمادياً، يزيد بريقهما المخيف أهدابٌ فاحمة السواد.

ـ جميع من تحدثت إليهم منذ وصلت أمس من «شوفرار».

قالت ذلك محاولة الفرار من عينيه، والتركيز على مشكلتها. وتذكرت بكآبة قنوطها هذا الصباح وهي تدور في أنحاء «مينيسيت»، تذكرت هزات الاكتاف الآسفة وآخر كلمة نصح: عليها أن تبحث عن ماكس فالكونر. والآن، بعد أن وجدته، بدا التماس الخدمة منه غير سهل.

ترددت لحظة، ثم أشارت بنظارتها نحو التلة الشديدة الانحدار في نهاية الصحراء. كانت التلة بعيدة عن أي مكان متحضر، وسطحها الحجري قد حوله الزمن السحيق إلى ما يشبه سطح القمر. وارتجفت كايرو لهذه الفكرة، لكنها كانت مضطرة للذهاب إلى هناك، فقالت:

ـ أنا بحاجة إلى دليل يأخذني إلى هناك.

ـ في «مينسيت» كثير من الأدلاء.

ـ لكنني لم أجد أحداً هناك.

ودفعت بقنوط شعرها الذهبي الداكن الطويل عن وجهها.

ـ لم أكن اعرف أن «شوفرار» بلاد إسلامية. رمضان ينتهي الليلة، وهكذا يحتفل الجميع بعيد الفطر، ولا يذهب أحد للعمل في أي مكان لعدة أيام. ليس لديّ وقت طويل أمضيه هنا، ولهذا لا أستطيع أن أنتظر عودتهم من عطلة العيد.

ـ كان عليك أن تفكري بذلك قبل مجيئك.

قال ذلك دون تعاطف، وهو يفتح باب الشاحنة ويميل إلى الداخل ليحضر دفتراً.

ـ كان عليك الاطلاع على العطل المحلية. ولو كنت أزعجت نفسك بالبحث لوجدت أن هذا الوقت غير مناسب لتكوني في الصحراء على كل حال. فالجو حار جداً وغير ملائم لتسلق المرتفعات. لقد انتهى فصل السياحة منذ

شهر.

فقالت باحتجاج: «قيل لي إنك تصعد إلى التلة على الدوام».

ـ هذا صحيح، لكنني لست سائحاً.

ـ ولا أنا. إنني أعمل هنا.

ـ عمل؟

قال ذلك غير مصدق وهو يرمقها بشكل يثير الأعصاب، ثم تابع: «وأي عمل تقومين به على التلة!».

ـ أنا أمثل مؤسسة «هايدن دين».

قالت ذلك محاولة اتخاذ لهجة سيدة الأعمال، لكن الشمس الحارقة التي كانت تلفح وجهها أفسدت ذلك التأثير، فأعادت النظارات على عينيها، وراحت تفكر بأن تتخلى عن التهذيب المفرط، فهو مضيعة للوقت مع ماكس هذا. ما إن ارتدت النظارات الداكنة حتى شعرت ببرودة وبرزانة ذوي الأعمال. ثم تابعت: «هايدن دين هي شركة إعلانات. نحن نريد تصوير عرض للأزياء مستعملين هذا النجد الصحراوي كمشهد خلفي».

تملكتها خيبة أمل وهي تراه ينفجر ضاحكاً.

ـ تصوير عرض أزياء على النجد؟ لا بد أنهم مجانين!

انبسطت أسارير وجهه عند الضحك، فردت ببرودة، وهي تشعر بالإهانة: «إنهم أبعد ما يكون عن الجنون».

وتملكها شيء من الحيرة وهي ترى كيف غيّر الضحك وجهه.

ـ إنهم مبدعون وناجحون، وقد نالت إعلاناتهم عدداً من الجوائز.

فقال بقسوة: «سينالون هذه المرة جائزة في الغرور إذا حاولوا التصوير هنا».

توقف عن الضحك، وخيّل إليها أنها رأت للحظة رجلاً جذاباً. ثم تابع قائلاً:

ـ ليس لديهم فكرة عن ذلك المكان.

جاهدت كايرو للاحتفاظ بهدوئها. عليها ألا تفقد أعصابها الآن! وقالت:

ـ هذا بالضبط سبب وجودي هنا. أنا وشريكي ندير مكتباً للاستشارات، يقوم بكل الإتصالات والأعمال التمهيدية لمشاريع كهذه. نحن نعي المشاكل المحتملة، لذلك أتيت للقيام بمهمة استكشاف الأماكن المناسبة، وتيسير أمور الإقامة قبل حضورهم. ألا يجعل هذا الأمر معقولاً؟

قالت ذلك بعذوبة ساخرة مصطنعة، لكن ماكس لم يقتنع. ثم دس دفتر ملاحظاته في جيب قميصه الأزرق المتّسخ كبنطلونه.

ـ إذا كنت تظنين أنه من السهل أن تأخذي مجموعة من مدّعي الإبداع المتمدنين إلى أحد أكثر أماكن العالم قساوة وحرّاً، فلا بد أنك مجنونة.

فقالت بعناد: «أعرف أن الجوّ سيكون حاراً، ولكن قيل لي إنه يمكن احتماله».

ـ إنه معقول إذا كنت صحيحة الجسم، وصلبةً للغاية ولديك دليل جيد. لا يبدو عليك، يا آنسة كينغسوود، أنك كذلك.

فرفعت رأسها بكبرياء: «أنا أصلب مما أبدو».

ـ أنا واثق من صلابتك التامة إن تعلق الأمر بالحصول على ما تريدين.

قال ذلك وهو ينظر إليها من فوق إلى تحت مقيّماً، بنظراته الباردة، بشرتها الناعمة وشعرها اللامع وملابسها الأنيقة. كانت ترتدي تنورة من الكتان تصل إلى ركبتها، وحذاءً منخفض الكعب، وبلوزة خضراء. ثم قال بصوت خشن: «سبق وقابلت نساء من نوعك، إنك تبدين كطفلة مدللة ولا أظنك قمت في حياتك بعمل عادي، فكيف بالأعمال الصعبة كهذه».

كان كلامه يقرب إلى الحقيقة المزعجة، فحولّت عينيها عنه وذقنها يهتز قنوطاً. بدأت تتعب من رفض الناس بحجة أنها مدللة، من دون أن يحاولوا قط فهمها. لم يكن ذنبها أن أباها دللها وأطلق لها العنان منذ ولادتها. وإذا لم يكن لها أي خبرة في العمل قبل الآن... حسناً، على كل ذلك أن يتغير. لقد أمضت وقتاً طويلاً في التماس فرصةٍ للقيام بعمل عادي! لكن «بيرس» هو من منحها الفرصة فقط. وقوّى شريكها عزمها، فقالت:

ـ لكني أعمل الآن.

ونظرت حولها باحتقار إلى بيوت المخيم الجاهزة الصنع، والطريق الترابي الممتد إلى الأفق.

ـ يمكنني أن أؤكد لك أنني لا أتمنع هنا! وإنما لديّ عملٌ عليّ القيام به في المرتفعات، وقد قمت بأبحاث كثيرة عنه.

فقال: «لو أنك قمت حقاً بأي بحث، لعلمت أن لا سبيل لأخذ فريق من المعاقين إلى هناك». وأشار إلى النجد العالي.

ـ هل عرفت كم من الوقت يستغرق تسلق هذه المرتفعات؟ إحدى عشرة ساعة تقريباً، في حرارة هي فوق الخمسين درجة ولا يمكنك الوقوف للراحة مدة طويلة، وإلا لن تصلي إلى القمة قبل حلول الليل. والنجد ليس مكاناً صالحاً للتجوال أثناء الظلام، ياكايرو كينغسوود، إنه مليء بالأخاديد الغادرة والحفر، وإذا سقطت في إحداها، لن تستطيعي الخروج منها أبداً.

ونظر إلى الفزع على وجهها ثم هزّ رأسه خاتماً كرمه.

ـ ولن تبقي حية، عند ذلك، أكثر من خمس دقائق.

ـ أتراهن؟

قالت ذلك بشجاعة لا تشعر بها.

قال برفض مطلق: «لا.. لأن ذلك لن يحصل».

ثم أحضر قبعته من السيارة ونفض عنها الغبار ولبسها:

ـ أنا لست مستعداً للصعود بك إلى ذلك النجد.

تنفست كايرو بعمق. لا يمكنه أن يرفض.. خصوصاً بعد كل هذا الوقت الطويل الذي أمضته في البحث عنه! وجرّبت ابتسامة توسل: «أرجوك. الأمر بالغ الأهمية».

فنظر إليها بازدراء: «وما هي أهمية الإعلانات؟ إنه عمل فاسد غير نزيه. عمل المعلنين هو إعطاء صورة مزيفة، ليقنعوا الناس بإنفاق نقودهم على شراء ما لا يحتاجونه. وهذا، في رأيي، عمل غير شريف ولا هام».

عضت كايرو شفتها وقد فوجئت بهذه المرارة غير المتوقعة في صوته. لماذا تغضبه الإعلانات إلى هذا الحد؟

- من المهم أن أقوم بعملي. ولا يمكنني ذلك إلا إذا صعدت هذا النجد وأنت الوحيد الذي يمكنه أخذي إلى هناك.

- إن قلبي يسيل دماً لأجلك.

قال ذلك باختصار وهو يغلق باب الشاحنة.

ما الذي يمكنها عمله الآن؟ لايمكنها العودة إلى الوطن وإخبار هايدن دين أنها لم تتمكن من الصعود إلى النجد. فقد كان بيرس يعتمد عليها لنجاح أول عمل لهما. ولا يمكنها أن تخذله، وإلا، لن يتمكنا بعد ذلك من الحصول على أيّ عمل آخر... وماذا سيحدث لأبيها عند ذلك؟

أخذت تنظر إليه بعجز وهو ينحني ليحكم غطاء أحد الصناديق. ثم سألته، وهي كارهة لنبرة التوسل في صوتها: «ألن تغيّر رأيك؟».

- ولماذا أغيره؟

سألها هذا، وهو يعتدل في وقفته. إزاء التعبير الذي بدا على وجهه، تراجعت بشكل لا إرادي، بينما تابع:

- لا يمكنك أن تؤثري عليّ بكل كلامك عن العمل والمعلنين رابحي الجوائز. لو لم يكن لدينا معلنون، لكان العالم أفضل حالاً بكثير. وإذا ظننت أنني سأضيع وقتي سدى على مغامرة غير مسؤولة مثل هذه، لإرضاء غرور من لا عقل له فقط، ففكّري في شيء آخر. هل كلامي مفهوم؟.

- تماماً.

قالت كايرو هذا بصوت جليدي. لم تكن معتادة على أن يعاملها أحد بهذا الشكل، ولم يعجبها ذلك.

- إذا كان هذا قرارك، فلن أزعجك بعد هذا.

فقال: «هذا ما أرجوه، من فضلك».

كان لا يُطاق حقاً! واستدارت عائدة إلى مسكن الضيوف، ثم أغلقت باب غرفتها عليها. تمنت لو أن بيرس لم يقنعها قط بالقدوم إلى هنا. كان هذا المكان أشبه بكابوس، وزاد الطين بلة أنها أجبرت على التوسل لأمثال ماكس فالكونر.

أخذت تسير في أنحاء الغرفة غاضبة، ومن هو لكي يحكم على الأمور؟ ما

هو سوى عالم جيولوجيا قذر وضيع.

أدارت جهاز التبريد ثم استلقت على سريرها الضيّق متأوهة. الأمر سهل. كل ما عليك أن تفعليه هو الصعود إلى ذلك النجد، وتدبير مسكنين جيدين، ثم استئجار الدواب لنقل الجميع صعوداً إلى هناك في الشهر القادم. الأمر سهل تماماً، هذا ما قاله لها بيرس.

سهل؟ وعبست وهي تنظر إلى السقف. لم يطل بها الوقت لكي تدرك أن الأمور ستكون بعيدة عن السهولة.

ليتها وصلت قبل أسبوع! لوجدت دليلاً في مينيسيت، ووصلت إلى النجد، وعادت منه قبل عطلة العيد، بدلاً من التوسل إلى ماكس فالكونر...

لماذا لم يختر هايدن دين مكاناً أسهل من هذا؟ واعترفت أن ماكس على صواب. ربما رأى هايدن بعض الصور، فقرر أنه مكان مثير، من دون أن يفكر في كيفية الحصول على الخبراء والمعدات المطلوبة للصعود إلى هناك. وأكد بيرس ببهجة بالغة: «هذا ما حدث. عندما أدركوا صعوبة الأمر، سرهم أن يكلفونا بالقيام بكل الترتيبات».

ألقى بنفسه على الكرسي خلف مكتبه ونظر إلى كايرو، المصعوقة منذ عرفت أنهم سيرسلونها إلى قلب الصحراء.

- ماذا حدث لك؟ إنها الفرصة التي ننتظرها، يا كايرو! إذا نجحنا في هذا العمل، سينتشر الخبر وسرعان ما تتوافد علينا شركات الإعلان.

وسألته: «لماذا عليّ أن أذهب؟».

عند بداية إنشائهما مكتب الإستشارات هذا، كانا قد صمما على العمل في مدن أوروبية، وليس في مجاهل أفريقيا.

وتردد بيرس: «لقد طلبوك أنت بالذات».

- طلبوني أنا؟ ولماذا أنا؟

لم يستطع شريكها مواجهة عينيها: «علموا أنك أقمت في بلاد الشرق الأوسط مدة من الزمن، وهي خبرة مفيدة».

ونظرت إليه ذاهلة، فاحمر وجهه. يظهر أن هايدن دين كان خُدع باسم

كايرو الغريب أي (القاهرة) عندما تعرف بيرس به، فأسرع هذا الأخير للاستفادة من ذلك، ومضى يزين له الحقيقة عن خبرتها بالشرق الأوسط.

فقالت بذعر: «بيرس، إن ولادتي في مصر، وقضاء السنوات الخمس الأولى من حياتي في البحرين، لا يؤهلانني لأن أكون خبيرة بالشرق الأوسط. أذكرك بأن شوفرار تقع في شمال افريقيا، إذا لم ترَ خريطة حديثاً».

ـ هايدن دين لا يهتم بذلك.

وتابع بيرس: «كل اهتمامهم ينحصر في الحصول على الترتيبات للتصوير، أعرف أنك قادرة على إنجاز المهمة سواءً بخبرة أم بدونها».

ـ لا يبدو لي هذا التصرف اخلاقياً، هذا كذب.

رد بيرس غاضباً متذمراً.

ـ لا أحد يظن أن فتاة محنكة مثلك يمكن أن تمتلكها مثل هذه الأفكار الرجعية، أحياناً أعتقد أن لديك قلباً طاهراً متزمتاً خلف صورتك المتألقة هذه. إسمعي، إذا كنت سترفضين فرصة كهذه، فالأفضل أن تعودي إلى عملك السابق كنادلة في مطعم، وبتلك الطريقة لن تتمكني أبداً من دفع ديون أبيك. أليس كذلك؟

توترت شفتا كايرو لعدم لباقته، لكنها أدركت أنه على حق، فأبوها يعتمد عليها الآن. وعاد بيرس يقول بثقة:

ـ سيكون الأمر سهلاً. إذا نجحنا في هذا العقد، ستتمكن من أن تعيد إلى عرابتك نقودها. وبعد ذلك ستتدفق علينا الأرباح. انتظري وسترين. كل ما عليك أن تفعليه هو الصعود إلى ذلك النجد.

ـ كيف؟

نهضت كايرو الآن. سوّت وسادتها خلفها، ثم جلست مستندة إليها وهي تتنهد. كان عليها أن تفكر. لا بد من طريقة للصعود إلى ذلك النجد. يمكنها أن تخذل بيرس وهايدن دين، لكنها لا تستطيع أن تخذل أباها.

أخذت تستعيد في ذهنها حديثها مع ماكس فالكونر. ربما تعرفت إليه بطريقة خاطئة. كانت هي متعبة مستاءة، وكذلك هو، فأفقدتها عيناه الثاقبتان

صوابها. وربما كانت ضيقة الصدر أكثر مما كانت تظن، ربما لم يفهم أنها ستدفع له أجراً، فهما لم يذكرا المال.

هذا هو الأمر. وجلست منتصبة الجسم، مقتنعة بأنها وجدت سبب عداء ماكس لها. ستتحدث إليه الليلة مرة أخرى عندما يكون الإثنان في مزاج أفضل، ثم تخبره بأنها مستعدة لأن تدفع له لقاء خدماته. ولا بد أنه يرحّب ببعض النقود نظراً إلى ملابسه الرثة تلك، وشاحنته المغبرّة.

نزلت من سريرها وقد استعادت ثقتها بنفسها، ثم بحثت في حقيبة ثيابها عن أجمل ثوب لديها. ستهتم الليلة بمظهرها وزينتها، حتى يقع ماكس صريع سحرها، فلا يتمكن من رفض التعامل معها! تملكها الشك لحظة وهي تعلق ثوبها الأسود، وحاولت أن تتصور ماكس فالكونر صريعاً، لكنها مالبثت أن أزاحت من ذهنها هذه الصورة.

كانت محظوظة إذ استطاعت الإقامة في المخيم. أخذت كايرو تتذكر بارتعاش الفندق البدائي في مينسيت. لو أنها لم تقابل بروس ميتشيل، لكانت الآن هناك. كان بروس رئيس إدارة المخيم الضخم المقام على بعد نحو عشرة أميال من مينسيت، وكان هو من أخبرها أين تجد ماكس، قائلاً:

ـ إنه يذهب ويعود، لكنه يقيم في المخيم مثلنا جميعاً. وهكذا لديك حظ أفضل في أن تجديه هناك، لِمَ لا تعودين معي؟ لدينا غرف للضيوف لا نستعملها كثيراً أثناء الفصل الحار، وهكذا يمكنك الإقامة هناك إلى أن يظهر ماكس. المخيم ليس شاسعاً... هناك فقط قاعة لتناول الطعام يقصدها كل الرجال العازبين، لكنني أعرف أنهم سيسرون جميعاً بامرأة بينهم، من باب التغيير.

لكن لم يبد على ماكس فالكونر أي سرور، كما تذكرت كايرو وهي ترتدي ثوبها. ونظرت إلى صورتها في المرآة متفحصة وهي تتساءل عما يكون رأيه. ازدادت اقتراباً من المرآة، تحدق في وجهها وكأنها لم تره من قبل، محاولة أن ترى نفسها من خلال عيني ماكس. كان لها وجه مثلث الشكل مرتفع الوجنتين، وعينان خضراوان براقتان، وشعر أشقر كثيف. ربما لم يعجب ماكس بها، لكنه

سيعرفها عندما يراها. عند هذه الفكرة تذكرت بحيرة، تلك اللحظة التي كادت تقسم فيها أنها سبق وتعرفت إلى ماكس من قبل. فهو أيضاً لم يكن من النوع الذي يمكن نسيانه.

تمثلت صورته أمامها، واضحةً بشكل غريب. تمكنت من تصوّر تلك العينين، بتألقها المخيف، حتى كادت أن ترسم فمه ووجنتيه. وارتجفت كايرو لا تدري لماذا. كان الثوب أحد أفضل ما تملك، وبات كبقية ملابسها، واحداً من أيام العز، قبل أن ينهار عالم اليسر والرفاهية الذي بناه أبوها لأجلها. ورغم طرازه المحتشم، كان جميلاً للغاية، يشعرها دوماً بالبهجة والثقة بالنفس عندما ترتديه.

ترى أيظنه ماكس جميلاً؟ ولسبب ما، شعرت كايرو بالإحمرار يتصاعد إلى وجنتيها وهي تفكر في نظراته. لم تكن حتى لتلاحظه في الأحوال العادية، إذ لا يوجد فيه شيء غير عادي، ما عدا تينك العينين المتألقتين اللتين تتغلغلان إلى الأعماق، وتلك القوة البادية. أما ما خلا ذلك، فلا دفء ولا ظرف، ولا صفة تزكّيه مطلقاً.

عندما أخذ بروس ميتشل كايرو إلى النادي تلك الليلة، ساد صمت قصير مذهل. وتحوّلت العيون كلها إلى الباب، حيث وقفت امرأة عند العتبة. لم تشعر كايرو بأي ضيق، فهي معتادة على إعجاب الرجال، ولكن غاظها أن تجد نظراتها تجول في أنحاء القاعة بحثاً عن ماكس.

رأته أخيراً متكئاً على الطاولة، فخفق قلبها. كان مشيحاً عنها جزئياً، ومع أن رجالاً خشني المظهر كانوا يحيطون به، لم تستطع إلا أن تلاحظ كم يتميز عنهم. لم يكن الأمر يتعلق بشكله، فالكثير من الرجال السمر الأقوياء يملأون المكان. لكن جواً هادئاً من ضبط النفس أحاط بماكس، فميزه عنهم.

لم يبدُ على ماكس أنه انتبه إلى وجودها. ولم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالنبذ. إنها تعلم جيداً أنها فتاة بالغة الجاذبية، إلى حدّ لفتت أنظار الرجال الموجودين. لكن ماكس لم يبد عليه حتى أنه لاحظ وجودها وكلما طال الوقت ازداد تصميمها على جذب انتباهه، فابتسمت وضحكت وثرثرت بحيوية

بالغة، حتى أحاط بها المعجبون، لكن ماكس بقي يتجاهلها. وبدأ الإحباط يظهر في عينيها الخضراوين.

سألها بروس وهما يذهبان لتناول العشاء: «ماذا فعلت مع ماكس؟ هل سيأخذك معه إلى النجد صباح غد؟».

ـ صباح غد؟

ـ نعم لقد أخبرني أنه سيعود مباشرة إلى النجد. إنه يمكث يومين هنا، في العادة، لكنني أتساءل لماذا يريد الذهاب بأقصى سرعة.

رأت كايرو أنه يسرع بالرحيل ليتخلص منها... ولكن ما الفائدة إن أخبرت بروس بمواجهتها المشؤومة مع ماكس. فقالت بغموض:

ـ لم ننته من التفاصيل بعد. كما أنني لا أتذكر تماماً اسم المكان الذي قال إنه سينطلق منه.

ـ ربما من «كويد ميسرا»، فهي أقصر الطرق. وأنا أعلم أن ماكس اعتاد الذهاب من ذلك الطريق. إنه يرسل تموينه على ظهر حمار، فيذهبون بطريق أسهل إنما أطول، لكنني لا أظنه يأخذك من ذلك الطريق.

فسألته بسرعة: «هل الطريق من هنا إلى «كويد ميسرا» طويل؟».

ـ حوالى أربعين دقيقة في السيارة، ماكس يأخذ أحد السائقين لينزله هناك ولا شك أنه سيأخذك معه.

تناولت كايرو طعامها وهي تفكر في ما عليها فعله. من الأفضل أن تقنع ماكس بإعادة التفكير. فإذا لم يشأ أن يأتي إليها، كما يفعل أي رجل طبيعي، فستذهب هي إليه. ولمّا لم تر له أثراً في قاعة الطعام، لمحت رجلاً متين البنية متوجهاً إلى الباب، فتمتمت تعتذر لبروس، ثم اندفعت خلفه.

انصفق الباب الدوار خلفها حالما خرجت إلى الليل. كان ماكس واقفاً على بعد خطوات منها، داساً يديه في جيبي بنطلونه، محني الرأس يحدّق إلى الأرض. وكان الضوء المنبعث من نوافذ قاعة الطعام ينير جانب وجهه. إحساس غريب بمعرفة سابقة إكتسح ذاكرة كايرو دون إنذار، فترددت، وقد تملكتها ثقة مفاجئة في أنها سبق وجرت خلفه بهذا الشكل، من قبل.

ربما هذا من نسج مخيلتها. لكن لماذا تشعر بأن هذا الرجل مألوف وهي تكاد تقسم بأنها لم تقابله قط من قبل؟ لا، لا يمكن أن تكون قابلته من قبل، إنها واثقة من ذلك.

ومع ذلك، بقي هذا الشعور مقلقاً بشكل غريب، وجاهدت كايرو لإخفائه وهي تتقدم إلى الأمام، قائلة: «مرحباً».

رفع ماكس رأسه بعنف، لكنه لم يجب على تحيتها، بل أخذ ينظر إليها بصمت، بعينين لم تستطع قراءة تعبيرهما في الظلمة.

ـ رجوت رؤيتك هذا المساء.

قالت ذلك بعد لحظة، فأجاب: «لماذا؟».

فكبتت كايرو تأففها. لم لا يحاول أن يكون لطيفاً على الأقل؟ حاولت أن تمنحه ابتسامة فاتنة سبق وسحرت بروس ميتشل ونصف رجال قاعة الطعام من قبل. لكنها لم تفز بأي استجابة من ماكس، فتابعت:

ـ أردت أن اعتذر إذ يبدو أنني لم أختر وقتاً مناسباً عصر هذا اليوم لإزعاجك.

ـ ما من وقت مناسب لإزعاجي على الإطلاق، يا آنسة كينغسوود.

ـ ظننت أنني ربما لم أشرح لك أمري بشكل كافٍ.

فقال بخشونة: «أنا لست غبياً. فأنا أعلم بالضبط ما تريدين. تريدينني أن آخذك معي إلى تلك الأعالي، وذلك تخطيطاً لإحضار أناس كثيرين يريدون أن يضيعوا وقتهم وأموالهم بأخذ صور لا يحتاجها أحد في مكان لا يستطيعون حتى تمييزه».

ذكّرت كايرو نفسها بتصميمها على اللطف، فضحكت بمرح.

ـ لم أقل إنك لم تفهم ما أريد، ظننت فقط أنك لم تدرك أنني كنت أعرض عليك اتفاقية عمل. لم أطلب منك القيام بذلك مجاناً. إنني مستعدة تماماً لأدفع لك المقابل.

ـ الجواب هو لا.

أجاب بذلك بلهجة بالغة الهدوء، ثم تابع: «لا يهمني ما ستكلف

الرحلة».

ـ هل أنت واثق من أنك تستطيع الاستغناء عن فرصة كهذه؟ يمكنك أن تربح في هذه الرحلة أكثر مما تربحه في سنة.

قالت ذلك باندفاع طائش، وما إن انطلقت الكلمات من فمها، حتى أدركت غلطتها، إذ قال ماكس بازدراء أجفلها:

ـ لقد سئمت منك. فقد سبق لي التعرف إلى نساء من نوعك. أنت تظنين أنه بمجرد امتلاكك للمال والملابس الجميلة، يمكنك الإشارة بأصبعك، فيسقط كل شخص عند قدميك. حسناً، الصحراء ليست هكذا، ولا أنا. أيّ منا ليس للبيع. وأنا لن آخذك أو آخذ أياً مثلك إلى أي مكان مهما دفعت لي. فعودي إلى مدينتك وتعلمي سماع كلمة (لا) جواباً.

* * *

٢ ـ لن تهزمني

ظللت كايرو عينيها بكفها من وهج الشمس وهي تنظر إلى السيارة التي سرعان ما توارت عن النظر. وعند ذلك، ابتلعت ريقها. لا بد أنها مجنونة!

لفها السكون كدثار ثقيل. امتدت الصحراء أمامها منبسطة سمراء خالية، نحو الأفق. خلفها لاح النجد، كومةً مخيفة من الصخر، تنحدر إلى أرض قاحلة حيث تقف.

لم تشعر كايرو في حياتها قط بمثل هذه الوحدة والسكون. ورغم أن الوقت لا يزال فجراً، إلا أن حرارة الجوّ كانت لاهبة. استدارت تنظر إلى النجد الذي كانت مصممة على تسلقه. لن يمكنها أبداً أن تعرف طريقها بنفسها.

كما أنها لن تتمكن أبداً من العودة إلى المخيم، كما تذكرت الآن وهي تشعر بالغثيان. لقد تركها سائق بروس وحدها هنا على كره منه، لكنها طمأنته إلى أنها رتبت أمرها مع ماكس وأنها ليست بحاجة إليه لينتظرها. وذلك خوفاً من أن يراه ماكس متسكعاً حولها، فتفسد خطتها. ثم جلست فجأة على صخرة وقد صدمتها فرحة ما فعلت، ولم تشأ أن تفكر في ما سيحصل إذا لم يأت ماكس.

كما أنها أيضاً لم تشأ أن تفكر في ما سيحصل إذا هو أتى. حسناً، لقد فات الأوان لتغيّر رأيها الآن. وفكرت متذمرة في أنها ما كانت لتقدم على هذه المغامرة لو أن ماكس كان منطقياً أكثر. وإن ماتت تحت وطأة الحرارة هنا، فهو المسؤول. عندما تركها الليلة الماضية، كانت غاضبة، إلى حد أن تصميمها على الصعود إلى النجد قد أصبح بقوة الفولاذ.

استلقت مستيقظة لساعات، تفكر في كل الخيارات. خطرت لها هذه الخطة، عندما ذكر بروس المكان الذي سيبدأ منه ماكس رحلته صعوداً إلى النجد إذا أرادت أن تصعد إلى النجد، فعليها أن تجازف.

في الصباح الباكر، ذهبت للبحث عن سائق بروس مينشل الهندي. وقد دهش السائق لطلبها، ولكن بما أن بروس وضعه تحت تصرف كايرو، هز كتفيه مذعناً. والآن، كل ما ترجوه هو أن يكون بروس قد أصاب حين قال إن ماكس سيغادر من هنا. أما إذا ذهب من طريق آخر...

ـ إياك حتى أن تفكري في ذلك.

حدثت كايرو نفسها بذلك بصوت مرتفع.

ـ فكري في والدك بدلاً من ذلك.

ورقّت أساريرها الحازمة لذكر أبيها. ماتت أمها عندما كانت ما تزال طفلة رضيعة، فدللها أبوها «جيريمي كينغسوود»، مغرقاً إياها بالهدايا وكل الرفاهية التي يفدقها المال. وعندما علمت كايرو أن المال ذاك لم يكن ملكه على الإطلاق، كان الأوان قد فات. لكنها وقفت إلى جانبه في الفضيحة والعار، وهي تعلم بأنه فعل كل ذلك لأجلها.

وقد حان دورها الآن للعناية به. وكانا باعا كل ما يملكان.. السيارات، واليخت، والبيوت، والشقق، واللوحات والتحف... كل ذلك ذهب... وأقسمت كايرو على أن تسدّد ما بقي من ديونه، وبهذا يمكنهما أن يفتحا معاً صفحة جديدة.

أخذت عيناها تجولان حولها بحثاً عن إشارة تطمئنها إلى أنها لم ترتكب خطأً مخيفاً. ورغم كل شجاعتها، اهتزت ركبتاها ارتياحاً عندما أعلنت سحابة غبار في الأفق عن اقتراب سيارة. أخذت تدعو الله أن يكون هذا ماكس وهي تخفي حقيبة ظهرها، وتتسلل إلى خلف صخرة.

أخذ قلبها يخفق وهي تسترق النظر بحذر من مخبئها بعد دقائق. كان هذا ماكس! كان يتبادل بعض النكات مع السائق وهو يأخذ حقيبة ظهره، فيما ابتسامته تضيء وجهه. ومرة أخرى وجدته كايرو بالغ الجاذبية عندما يبتسم.

وعندما تحوّل ليلقي بحمله على الأرض، عادت ذاكرتها فجأة. لكن شعاع الإدراك سرعان ما تبدد. لقد عرفته من قبل... ولكن أين؟

كان ماكس يطرق سطح السيارة بشدة معلناً للسائق استعداده، وما إن تحرك السائق بالسيارة ملوحاً بيده من النافذة، حتى أسرعت كايرو تخفي رأسها خلف الصخرة.

للحظة غادرة، حدثتها نفسها بأن تبقى مختبئة، قبل أن تستيقظ كبرياؤها ويتصلب ظهرها مجدداً. لن تدع ماكس فالكونر يرهبها، وعلى كل حال، ليس لهاأي خيار. فإذا بقيت هنا، لن تجد وسيلة تعود بها إلى المخيم الآمن.

غضبت لجبنها هذا، مرغمة نفسها على النهوض. ما الذي يمكنه أن يفعل بها، على كل حال؟

سحبت نفساً عميقاً، ثم خرجت من وراء الصخرة.

ـ مرحباً.

كان ماكس منحنياً على حقيبته وظهره إليها، لكن تحيتها جعلته يستدير محدقاً إليها غير مصدّق. كانت رشيقة أنيقة «بالشورت» الطويل الفضفاض، والقميص القصير الكمين اللذين ترتديهما. بينما تدلت قبعة عريضة من القش من يدها، وانفجر يقول بعد لحظة ذهول:

ـ ما الذي تفعلينه هنا بحق الله؟

فقالت محاولة التظاهر بضبط النفس: «أنتظرك».

بان الوعيد على وجهه للحظة، قال بعدها: «هل لديك مشكلة في فهم اللغة الإنكليزية؟».

سألها ذلك بهدوء خطر، ثم تابع: «سبق وأخبرتك، يا امرأة، وأعود فأخبرك لآخر مرة، فاصغي إليّ جيداً».

ومال نحوها يقول ببطء ووضوح بالغين: «أنا لن آخذك إلى النجد».

تملكها الخوف من الغضب المتوهج في عينيه، لكنها لم تتزحزح.

ـ إذن، سألحق بك فقط، ولن تستطيع فعل شيء إزاء ذلك.

ـ لن تتمكني أبداً من الاستمرار. ستضيعين خلال خمس دقائق.

قال ذلك باحتقار، فأجابت رافعة الرأس:

ـ ربما، لكنك لم تترك لي خياراً آخر.

ـ بل تركت لك خياراً، وهو أن تعودي إلى المخيم، ومنه إلى لندن في أسرع وقت ممكن.

ـ لا أستطيع.

ـ ماذا تعنين بقولك لا أستطيع؟ ألم تأتي إلى هنا؟ يمكنك إذن أن تعودي.

ـ لقد أخبرت السائق بأنني سأقابلك هنا. وقد ذهب.

ساد الصمت لحظة، قال بعدها بصوت هادىء اقشعر له جلدها: «أتعنين أنك جئت إلى هنا لتقفي في حرارة هي فوق الخمسين درجة بعد أن صرفت وسيلتك الوحيدة للنجاة؟».

ـ كنت أعلم أنك ستأتي، قال بروس إنك، عادة، تذهب من هذا الطريق.

عادة، نعم! ولكن ليس دوماً. وحدّق إليها غير مصدق: «كيف تكونين غبية وعديمة المسؤولية إلى هذا الحد؟ أظنك تدركين أنني لو قررت الذهاب من طريق آخر لبقيت هنا وحدك بدون مال ولا أصدقاء. لا أحد يأتي إلى هنا في هذا الوقت وما كنت لتطيقين العودة إلى المخيم من هنا مشياً على قدميك».

ـ عليّ أن أصعد إلى النجد.

قالت ذلك بعناد، فارتفع صوته بقنوط: «ولماذا؟ وما أهمية هذا الإعلان التعس الذي يجعلك تغامرين بحياتك لأجله؟».

تشعرت بوجنتيها تلتهبان: «لقد ابتدأت لتوي عملاً مع شريك لي وقد انتظرنا طويلاً حتى حصلنا على أول وظيفة. والآن بعد أن حصلنا عليها لا يمكنني العودة إلى الوطن لأقول إنني لم أستطع حتى الوصول إلى الموضع. كرهي للصعود إلى هذا النجد يماثل كرهك لأن تأخذني، لكنني مضطرة وإذا لم أفعل، سيفشل عملنا. ولن أستطيع الحصول على فرصة أخرى».

لم يكن ثمة حاجة لذكر دين عرابتها الذي يُثقل كاهلها، أو والدها، الرجل المفلس الذي ينتظرها بصبر لتوقفه على قدميه.

ـ كنت غبية لقبولك هذه المهمة. الصحراء ليست مكاناً لفتاة مثلك.

فردت بكبرياء: «إنك لا تعرف قدرتي على التحمل».

فنظر إليها بنفور.

ـ يمكنني التخمين جيداً. لقد كنت مدللة مرفهة في حياتك بحيث ظننت العالم يدور حولك، وأنت مستعدة لسلوك أوعر الطرق، فقط لتحصلي على ما تريدين. لا يهم إن رفضت أن آخذك معي... لا يهم أنك قد تلهينني عن عملي أو تعطلينني عنه. لا يهم أن يجازف الناس بحياتهم، عدا عن وقتهم ومالهم، للبحث عنك.

واهتز فكه بغضب بالغ: «عليّ أن أتركك هنا، لخداعك هذا».

حبست كايرو أنفاسها وهو يشيح عنها مبتعداً، ثم يشتم وينزع قبعته عن رأسه ثم يمرر أصابعه في شعره بقنوط: «إنك إزعاج لعين! ليس لديّ الوقت لأعيدك إلى المخيّم، كما استنتجت أنت بمهارة، ولا يمكنني تركك لتموتي عطشاً، مهما كان مدى استحقاقك لذلك».

ـ هل ستأخذني معك إذن؟

وابتسمت بارتياح. لكن ابتسامتها تلاشت عندما تقدم ماكس نحوها، ونظر إليها بقسوة، فابتلعت ريقها لرؤية ملامحه الحاقدة وهو يقول: «قد تكونين ربحت هذه الجولة. لكنني لو كنت مكانك لما شعرت بالغرور، يا كايرو كينغسوود. فأنا لا أحب أن يحتال عليّ أحد. فإذا سمعت كلمة شكوى واحدة، أو تمتمة احتجاج على الوضع، أقسم أن أتركك حيث أنت».

ثم تابع: «هل هذا مفهوم؟».

ـ نعم.

أرادت أن تبدو هادئة، لكن المذلة تملكتها وهي ترى صوتها أصبح مجرد همس.

ـ هذا حسن.

وابتعد.

ـ أظنك أحضرت بعض الزاد معك؟.

فقالت بصوت أجش: «لديّ حقيبة ظهري».

ـ أرنيها.

جذبت حقيبتها تناوله إياها، فأخذ يفرغها على الأرض دون اهتمام.

ـ ماذا تفعل؟

ـ كلما زاد ما تحملينه، أبطأنا في السير. لن تحتاجي نصف هذه الأشياء، ونبدأ بهذه.

وأمسك بكيس زينتها وألقى به جانباً.

فقالت باحتجاج: «لكن هذا يحتوي على مستحضرات التنظيف».

ـ إذا وجدنا واحة، يمكنك الاغتسال، وإلا عليك أن تبقي قذرة. إذ لا فائدة من محاولتك التأثير عليّ بمظهرك، وأنا الشخص الوحيد الذي سترينه.

فردت عليه بحدة: «أنا لن أزعج نفسي بتضييع وقتي في محاولة التأثير عليك. إن تفكيري هو في نظافتي الشخصية».

ألقى ماكس بمنشفة يلحقها بكيس الزينة.

ـ وأنا أفكر في وسائل النجاة. إما أن تمتثلي لما أقوله في هذه الرحلة، أو تبقي هنا. فالخيار لك.

بقيت كايرو صامتة مستاءة. لقد ألقى ماكس بنصف الأشياء التي كانت اختارتها بعناية هذا الصباح. لكن ما إن ألقى بالبوصلة على الكومة، حتى صرخت باحتجاج: «قد أحتاج هذه!».

ـ لماذا؟

ـ حسناً... قد يحدث لك شيء.

فقال عابساً: «الأفضل لك أن تدعي الله ألا يحصل ذلك. لن تنفعك البوصلة إذا كنت لا تعرفين إلى أين تذهبين. فلن تجدي طريقك وحدك أبداً، سواء ببوصلة أم بدونها».

ـ لن أترك مفكرتي.

وانقضت كايرو عليه قبل أن تلحق بالكومة التي كانت تتنامى باطراد، تضمها إلى صدرها، وتحميها وكأنها حياتها. لم تكن تستطيع القيام بشيء من دونها. ففيها العناوين وأرقام التليفون وحساب البنك وملاحظات عن العمل

وقوائم وتواريخ أعياد ميلاد. . . كل شيء احتاجته كان مسجلاً في هذا الدفتر الأسود بعناية، ولا يمكن أن تستغني عنه، مهما قال ماكس. فقال ساخراً: «أنت لست بحاجة إلى إعطاء مواعيد هناك. ولا يفيدك أن يكون لديك رقم «فاكس» شخص ما، حين تشرفين على الموت عطشاً».

ـ هذا لا يهمني. لن أجازف بتركها هنا، فأنا أشعر بالضياع من دونها.

ـ كما تشائين ولكن لا تلوميني حين تكافحين لكي تحملي حقيبتك.

وألقى نظرة متفحصة على ما بقي على الأرض. . . مصباح يد، زجاجتي ماء كبيرتين، كيس طعام. ملاءة للنوم وحصيرة كانت صديقتها أعارتها إياها، وقميص فضفاض كبير المقاس وغيار ملابس داخلية.

ـ هذا يفي بالغرض.

قال ذلك وهو يعيد هذه الأشياء إلى الحقيبة، بينما استعادت كايرو كيس زينتها خلسة.

وسألته بحدة: «ماذا عن الأشياء الأخرى؟».

ـ ماذا عنها؟

ـ لا يمكنني تركها هنا، قد يسرقها أحد.

ـ أتركيها خلف تلك الصخرة هناك وضعي فوقها حجراً أبيض فاذا جاء أحد ورآها، سيدرك أنها ملك لشخص ما. لكن أشك بأنه يهتم بهذه الأشياء النافهة. لا أستطيع أن أتصور شخصاً تهمه أدوات الزينة في الصحراء.

نقلت كايرو كيس زينتها إلى حقيبة ظهرها مع المفكرة، بينما راح ماكس يبحث عن حجر أبيض. وعندما عاد استقامت بسرعة وقابلت نظرته المتشككة بملامح بريئة.

ـ ماذا تفعلين؟

ـ لا شيء. أنتظر أوامرك.

قطب حاجبيه لجوابها الوقح.

ـ يبدو أنك لا تدركين الوضع الخطير الذي وضعت نفسك فيه. قد تكونين نجوت من البقاء وحيدة هنا، ولكن بقي عليك أن تخوضي مخاطر الأيام القليلة

المقبلة، ولا أظنك ستحبينها كثيراً. أنت تعتمدين عليّ بشكل كامل، ولهذا فمن الحكمة أن تسيري بحذر بالغ.

ألقت كايرو برأسها إلى الخلف متحدية: «أنا لست ضعيفة واهنة كما تظنني، لا سيما بعد أن أوصلت بنفسي إلى هذا الحد، أليس كذلك؟».

ـ لقد أوصلت نفسك إلى وضع خطر للغاية. لو كان لديك ذرة من العقل لما أدليت بتعليقات وقحة كهذه. كان عليك أن تكوني متوترة الأعصاب، فأنت بين يدي رجل غريب عنك تماماً، بدون وسيلة للعون.

ـ أنا أثق بك.

قالت ذلك باستياء. ومع أنها رأت أن ما يقوله صحيح، لكنها كرهت أن تبدو حمقاء.

ـ وهذا مزيد من الحماقة. . فربما كنت مجنوناً مهووساً وحاولت استغلالك رغم كل شيء.

أدركت، لأول مرة، مغزى كلامه، فتملكها الغضب:

ـ لا يبدو عليك الجنون. نعم أنت سيء المعشر وفظ، لكنك لست مجنوناً. أما عن الهوس فمن الواضح أنك لا تحب النساء.

ضاقت عينا ماكس.

ـ ما الذي جعلك واثقة من ذلك؟

وتقدم نحوها، فتوترت أعصابها فجأة، وتراجعت إلى أن اصطدمت بالصخرة الكبيرة. كان قلبها يخفق بعنف بين أضلعها، لكنها قابلت عينيه بتمرد: «أنت أعطيتني هذا الانطباع بتصرفاتك الغريبة».

كان واقفاً قريباً جداً منها، فقال بنعومة: «هل أنت واثقة من نفسك إلى هذا الحد؟ ألأنني لم أظهر اهتماماً بك، افترضت على الفور أنه من المستحيل أن أهتم بامرأة أخرى؟».

دفعها منظر وجهه لتكافح الخوف الذي سيطر عليها. ولكن قسوة عينيه لم تترك مجالاً لذاك الخوف بأن يخف. ثم سألها: «كيف يكون المرء بهذه التفاهة والغرور؟».

فجأة تغيرت نظراته وبانت في عينيه نظرة خبيثة ثم سمعته يقول: «ربما علي أن أعلمك درساً. لقد وضعت نفسك تحت سيطرتي فلا تلومي الا نفسك».

كانت كلماته أشبه بتيار كهربائي صعقها.. ولكن قلبها خفق إثارة بدل أن يخفق خوفاً.. تصورت هذا الرجل يطوقها بسحره وجاذبيته، ولكنها عادت فكبحت عصف قلبها الغادر.

- لا، ما تهددّ به مناف للأخلاق.

همست بذلك فأجاب بخشونة: «أنت السبب!».

ثم نظر إليها بازدراء زاد من احمرار وجهها.

- على كل حال أنت بأمان معي فأنت لا تعجبينني ولا أريدك معي.

ورفع حقيبته يضعها على ظهره.

- لا يهمني إن بقيت هنا ومتّ عطشاً، ولكن إذا كنت قادمة معي، أسرعي فلن أضيّع مزيداً من وقتي سدى.

ودون أن ينتظر ليرى هل تحركت أم لا، انطلق سائراً في طريقه.

حدّقت كايرو في أثره باشمئزاز. كان قلبها ما زال يخفق، وكانت تكافح للسيطرة على تنفسها. الموت عطشاً، في تلك اللحظة، بدا لها أفضل من رؤية ماكس فالكونر مرة أخرى.

ولكن عندما هدأ شعور المذلة فيها، عاد إليها المنطق، فكما سبق وقال ماكس، لم تبق لنفسها خياراً آخر.

كان يصعد الطريق بثبات، ولم ينظر خلفه مرة واحدة. علقت حقيبتها على ظهرها، ووضعت قبعتها على رأسها، ثم انطلقت خلفه.

أول قسم من الطريق الصاعد إلى حافة النجد، كان ضيقاً شاهقاً، وكان حذاؤها ينزلق في كل لحظة على الأحجار في كل الإتجاهات. وسرعان ما أخذت كايرو تلهث. وكان شعرها، تحت القبعة، رطباً بالعرق وملتصقاً برقبتها. وأمامها، أخذ ماكس يسير بخطوات واسعة منتظمة مسترخية وقد بدا لها هادئاً مرتاحاً. لا مبالاته هذه أثارت أعصابها، فهو لم يلق نظرة واحدة ولو ليعلم إن

كانت تبعته أم لا! لكنها تستطيع الاستمرار، ومثله كانت مصممة على أن تثبت له خطأه. وتابعت صعودها وهي تصرف بأسنانها.

كراهيتها لماكس سهّلت عليها تحمّل الهواء الحار الذي جففّ رئتيها، فصعب عليها التنفس، وكذلك احتكاك أحزمة الحقيبة بكتفيها. لم تعرف قط، من قبل، رجلاً مثله لا يحاول كتم كراهيته. صحيح أنه يملك الحق في أن يغضب من الطريقة التي فرضت بها نفسها عليه، ولكن لا حاجة له بأن يهاجمها بهذا الشكل.

وقفت تلتقط أنفاسها وتمسح العرق عن شفتيها وهي تنظر حولها. كان الطريق ينحرف صعوداً ثم يضيق ويتوغل بين جدارين شاهقين من الصخور. كان مكاناً فظيعاً مخيفاً، أرضه جرداء قاحلة. وتلهفت على أرض إنكلترا الخضراء الناعمة، على مشهد الأشجار والحقول والبيوت.

تابعت السير بتثاقل وجهد، منحنية الرأس، ومضى بعض الوقت قبل أن تنتبه إلى أن ماكس قد توقف ينتظرها في ظل الصخور المنحنية فوقهما. فكرة الراحة جعلتها تسرع الخطى، فقد كادت حرارة الشمس تجعلها تتبخر.

جلس ماكس على الأرض الحجرية، مريحاً ذراعيه على ركبتيه، مديراً رأسه، ينظر إليها وهي تصعد ببطء الأمتار القليلة الباقية لتصل إليه. كانت كايرو واعية تماماً لاحمرار وجهها والعرق الذي يسيل على ظهرها، فبدا استياؤها مراً لما رأت السخرية الهادئة على وجهه، وأدركت أنه كان يقارن بين المرأة الأنيقة وبين التي اقتربت تتقدم نحوه الآن وهي تنفخ وتلهث. كشرت في وجهه وهي تفتح حقيبة ظهرها وتخرج منها الماء، وقال: «عليك أن تسرعي أكثر إذا شئت أن تصلي إلى المخيم قبل الظلام».

- إنني أسير بأسرع ما يمكنني.

ردت عليه بحدة وهي تفتح زجاجة الماء، كان الماء ساخناً غير عذب. لكنها مالت برأسها إلى الوراء وتركته يتدفق على وجهها وعنقها وكأنه رحيق. وعندما ارتوت أخيراً، خلعت قبعتها ودفعت نظارتها الشمسية إلى قمة رأسها،

ثم مسحت وجهها المبلل بكف يدها. وعندما أقفلت زجاجتها وأعادتها إلى الحقيبة، هب ماكس واقفاً.

ـ جاهزة؟

ففتحت فمها لتحتج بأنها لم تسترح بعد، عندما التقت بعينيه. كان فقط ينتظر منها أن تشكو! حسناً، فلينتظر! رفعت وجهها إليه والتمرد في عينيها الخضراوين، ثم دفعت بحقيبتها تعيدها إلى ظهرها.

ـ جاهزة.

وأعادت قبعتها القش إلى رأسها. هنا، بدت لمحة إعجاب في عينيه رغماً عنه، قبل أن يشيح بوجهه، فشعرت بمعنوياتها ترتفع ببطء وهي تنزل نظاراتها على عينيها، ثم تتنفس بعمق. ستريه! شعرت بساقيها ترتجفان، وتمنت لو تنهار كومة واحدة في الظل، لكن التفكير في ازدراء ماكس أرغمها على جرّ قدميها ببطء وعناد خلفه. لو أنها لم تكن تعرف ماكس جيداً، لظنت حين توقف مرة أخرى بعد فترة قصيرة، أنه فعل ذلك لأجلها. نزع حقيبته عن ظهره في الظل بين الصخور، بينما صعدت كايرو ببطء متوجهة نحوه.

ـ سنرتاح هنا فترة.

تهالكت بجانبه وأغمضت عينيها. كانت من التعب بحيث لم تستطع إخراج زجاجة الماء. كان قلبها يخفق جهداً، ورأسها في قبضة الحرارة والعطش.

«خذي». قال ذلك بصوت أجش، ففتحت عينيها لتراه يقدم إليها برتقالة قطعها أربعة أجزاء. كانت خضراء من الخارج، لكنها برتقالية اللون مليئة بالعصارة من الداخل، فأخذت كايرو تمتصها بنهم. لم يحدث من قبل أن ذاقت شيئاً لذيذاً مثلها.

ـ شكراً.

بعد أن شربت ومسحت وجهها، شعرت بالتحسن. خلعت قبعتها ونظارتها، واستندت على حقيبتها إلى الخلف وهي تتنهد.

سألها فجأة: «لماذا تفعلين هذا؟ كل هذا الحديث عن قيامك بوظيفتك لا

يبدو لي حقيقياً. لا تبدين لي من نوع النساء العاملات».

وجدته كايرو على صواب. حتى سنة مضت، لم تضطر إلى العمل قط... ولكن هذا كان منذ عام. وقد تغيّرت الأمور منذ ذلك الحين. فقالت: «أنا أقوم بذلك للسبب نفسه الذي يقوم به كل إنسان. أنا بحاجة إلى المال».

ـ لا بد أن هناك طرقاً أسهل من هذه لكسب المال.

نظر ماكس إلى كايرو، مستندة على حقيبتها، وشعرها الذهبي داكن بسبب العرق وساقاها الطويلتان ممددتان أمامها على التراب. أما حذاؤها المطاطي وجورباها القصيران الأبيضان، فأصبحا الآن أسمرين ملطخين بالرمال.

ـ عملك الاستشاري هذا، لا يبدو لي ذا جدوى. لماذا لا تتخذين وظيفة حقيقية؟

أخذت كايرو تروّح عن نفسها بقبعتها: «ليس لدي مؤهلات».

لم تكن مضطرة إلى العمل بعد أن تركت المدرسة. صحيح أنها أرادت أن تتعلم شيئاً ما لكنها لم تفعل قط حتى فات الأوان.

ـ من الصعب تصديق ذلك. لكنني أظن أن لديك عقلاً في مكان ما من رأسك، ولا بد أنه بإمكانك القيام بشيء ما.

هذا ما كانت تظنه. أخذت تفكر بذلك وهي تتذكر، الشهور الطويلة التي حاولت فيها الحصول على عمل... مواجهاتها المذلة مع مكاتب العمل وهي تعترف بأن ليس لديها مؤهلات ولا خبرة، رسائل الرفض التي لا تنتهي، الإدراك البطيء المؤلم أن لا فائدة للعالم منها... وأخذت ثقتها بنفسها تتناقص تدريجاً. وهكذا، عندما عملت أخيراً كنادلة، تملكها السرور. حين صادفت «بيرس» مرة أخرى، كان هو من أعاد لها ثقتها بنفسها، وجعلها تدرك أنها كانت تسير في الطريق الخطأ. وقالت لماكس:

ـ من الممكن الحصول على عمل عادي، لكن من يسعى إلى المبالغ الكبيرة، عليه أن يغامر. إذا نجح مكتبنا الاستشاري، سنكسب من المال أكثر بكثير من أي عمل عادي آمن.

فقال ماكس هازئاً: «آه، المال. كان عليّ أن أعلم أن هذا هو السبب. هل هذا كل ما يهمك؟».

فكرت كايرو بوجه أبيها وهو يجمع ديونه، ثم أجابت ماكس بهدوء: «نعم حالياً».

وشعرت فجأة برغبتها في أن تفهمه، ولكنه كما يبدو، ترك الموضوع مشمئزاً، ثم تمدّد في الظل وهو ينزل قبعته على عينيه.

كانت هي المرة الأولى التي استطاعت فيها النظر إليه بشكل صحيح. كان يرتدي بنطلوناً رثاً وقميصاً قديماً كاكي اللون. ووجدت عينيها تنزلان إلى أسفل عنقه. كانت يداه متشابكتين خلف رأسه وقد بدا عليه الارتياح البالغ وكأنه في بيته.

نظرت حولها. كانت الطبيعة مهددة مرعبة، والطريق تتلوّى صعوداً، والسكون ثقيلاً خانقاً، وفي السماء نسر يحلق فوقها. ارتجفت كايرو. كيف يمكن لماكس أن يبدو مرتاحاً في هذا المكان الفظيع؟ اقتربت منه بدون وعي وقد تذكرت ما سبق وقاله عن اعتمادها الكلي عليه. جعلتها قوته وصلابته تطمئن إليه بشكل غريب.

تذكرت خيبة أملها عندما رأته لأول مرة. كان فيه ما يثير الفضول... شيء من الإكتفاء الذاتي وكأنه لا يهتم مثقال ذرة برأي أي شخص آخر. أطالت النظر إليه متفحصة، وهي تفكر في أن التعامل معه سيكون أسهل لو أنه بنفس الهدوء الذي يبدو عليه لأول وهلة. لكن عينيه تكشفان عن رجل مشبوب العواطف أكثر مما يبدو عليه ظاهرياً. فشعرت كايرو بتوتر قابل للإنفجار، مقلق بقدر ما هو مألوف ومحير. لقد سبق وأحسّت بذلك من قبل. إنها واثقة من ذلك.

حرك ماكس كتفيه غير واعٍ لتفحصها له. فجذبت كايرو نفساً حاداً، وقد أجفلها هذا الشعور الحاد الذي لم تحسب له حساباً.

ـ ماذا حدث؟

رفع ماكس قبعته ناظراً إليها بعينين شبه مغمضتين، لدى سماعه شهقتها.

حتى في الظل كانت عيناه المتألقتان ثاقبتين، فحولت كايرو نظراتها بسرعة.

«لا شيء». قالت ذلك بصوت مختنق وقد دهشت لما بدا منها، وارتجلت جواباً سريعاً: «كنت أتساءل هل سبق لنا التعارف».

نظر ماكس إليها بتفحص، ثم عاد يغطي عينيه بقبعته. فتابعت: «لا أظننا نرتبط بنفس الاهتمامات، أليس كذلك؟».

ـ لا.

كان مزعجاً، متغطرساً، لا يُحتمل، فاقد الصبر، وفظاً تماماً... ذكّرت كايرو نفسها بذلك بغضب لكنها لم تقو على إبعاد نظرها عنه. لا بد أن حرارة الجوّ أثّرت عليها أكثر مما ظنت.

ـ ما هو عملك بالضبط؟

فأجاب مذعناً لسؤالها: «أنا عالم جيولوجيا. أقوم بمسح تكوين النجد والمعادن المحتمل وجودها فيه، وذلك بتكليف من حكومة «شوفرار» حالياً».

ـ هل تعمل لنفس الشركة التي يعمل لها بروس مينشل؟

ـ لا. أنا خبير مستقل.

لم تستطع كايرو أن تمنع نفسها من تكرار تعليقه: «خبير؟ لماذا لا تتخذ عملاً عادياً منتظماً؟».

ـ أنا أعمل بشكل أفضل وحدي.

قال ذلك بدون انزعاج، لكن ابتسامة مرغمة لاحت على شفتيه، وأحسّت كايرو بقليل من الدفء لكنها حولت نظراتها عنه، وسألته:

ـ هل تعمل هنا منذ وقت طويل؟

ـ أين نحن؟ أي حفلة كوكتيل؟

ورفع قبعته ليرمقها بنظرة ساخرة: «هذا النوع من الاستجواب يذكرني بحفلات لندن: ماذا تعمل؟ هل تحب عملك؟ وطوال الوقت ينظرون من فوق كتفيك وهم يبحثون عن شخص آخر أكثر إمتاعاً وإثارة للاهتمام ليتحدثوا إليه. لماذا يسأل الشخص عن شيء لا يهمه؟».

ـ أنا مهتمة بذلك.

قالت كايرو هذا والعجب يتملكها للمرارة التي بدت في صوته عندما تحدث عن لندن.

ـ ما كنت لأزعج نفسي بتضييع أي سؤال عليك. لكننا، سواء كان هذا حظاً حسناً أم لا، راحلان معاً. فظننت أنه من المستحسن أن أعرف شيئاً عنك. ولو لم أكن أرغب حقاً في معرفة المدة التي قضيتها هنا، لما سألتك.

فتنهد قائلاً: «إذا كان الأمر ممتعاً لهذا الحد، فالجواب هو سبع سنوات».

ـ ألا تريد العودة إلى الوطن إطلاقاً؟

«ولماذا؟» ودفع قبعته إلى الخلف ثم جلس مستنداً ظهره على الصخرة.

ـ لقد نشأت في مدينة، ولا أريد أبداً أن أعود إلى هناك. كل شيء حسن ومتحضر في الظاهر، لكنه متعفن تماماً من الداخل. معظم الناس الذين عرفتهم هاجسهم الوحيد هو المال.. مثلك تماماً.... وإذا لم يكن المال، فهو المحافظة على المظاهر بأي ثمن، مع الإدعاء بخلاف الحقيقة. وهكذا يسود الفساد. وقد وجدت ذلك مثيراً للغثيان.

أجفلت كايرو. لقد وصمت الصحف أباها بتهمة الفساد، والفساد يوحي بأن الشخص منحرف، كما قال ماكس، لكن أباها لم يكن كذلك قط. ربما متهور أحمق أو حتى غير نزيه، ولكنه لم يكن سيئاً.

وقالت بعد لحظة: «ليست الأمور دوماً بيضاء وسوداء كما تظن».

ـ هذا صحيح. ليست كذلك. لكن الأمور كذلك في الصحراء. ولهذا أحب الحياة هنا.

تابعت عيناه النسر الذي كان يحلّق فوقهما.

ـ الصحراء تجرد الإنسان من كل شيء عدا الضروري. الوقت يأخذ هنا معنى آخر. لا تصورات في الصحراء، لا رغبة في التأثير على الآخرين. فأنت كما أنت.

ونظر إلى كايرو فجأة بعينين لامعتين.

ـ عليك أن تمضي في الصحراء كثيراً من الوقت. فقد يخفف ذلك من توترك.

فقالت بضيق: «أنا لست متوترة!».

وأشاحت بوجهها مصممة على عدم إظهار مزيد من الاهتمام.

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ ليل وقمر ونجوم

ساد الصمت بينهما. كانت عيناه مظللتين بقبعته، ومن المستحيل أن تقرأ فيهما ما يجول في ذهنه. ماكس هذا يحيّر كايرو ويثير فضولها، فهو لا يشبه أي رجل عرفته من قبل. ورغم رغبتها في تجاهله، لم تستطع منع نفسها من التساؤل، هل حطمت قلبه فتاة أحبت المال أكثر مما أحبته؟ لا يبدو عليه أنه من النوع الذي تحطم قلبه امرأة، فهو أقوى من أن يحدث له ذلك.

ألقت كايرو عليه نظرة أخرى، متسائلةً عن نوع الفتيات اللواتي يعجبنه. إنه لا يحب الشقراء الطويلة المجرّبة. هذا أكيد. وشعرت بما يشبه الغيرة، فهي لم تقابل قط شخصاً لا يفتنه سحرها.

أخذت تخطط بإصبعها على التراب، وهي تشعر بأنها لا تريد أن تتصور ماكس مع امرأة أخرى. ونظرت إليه مرة أخرى وإذا بها تراه يتأملها بنظرات غامضة.

تقابلت نظراتهما، فاهتزت، وسرى التوتر بينهما.

قال فجأة: «من الأفضل أن نتابع السير».

وتذكرت، عابسة، مبلغ تعبها، وهي ترفع حقيبتها على ظهرها، وقد بدا لها أن وزنها ازداد إلى الضعف.

ـ يبدو أن لديك حروق شمس هنا.

ووضع إصبعه سهواً على كتفها، فأجفلت كأنما مسها تيار كهربائي، فرفع

حاجبه ساخراً.

ـ ظننتك غير متوترة.

فأجابت مطبقة الأسنان:

ـ هذا صحيح. لكن الموضع يؤلمني.

فقال دون عطف كعادته:

ـ تستحقين هذا، فقميصك دون أكمام، فهذا ليس وقت تعريض الجسم للاسمرار.

فقالت بحدة: «بل لبسته لأشعر بالبرودة».

ـ ستشعرين بالبرودة إذا ارتديت قميصاً رقيقاً.

وتنهد بضيق وهو يفتح حقيبة ظهره ثم يسحب منها قميصاً ذا لون أخضر داكن فألقى به إليها.

ـ خذي. لا أريد أن تصابي معي بضربة شمس.

أنذرتها ملامحه بعدم النقاش، كشرت لهذا اللون ولبسته فوق قميصها. شعرت بحرارة بالغة، لكنها عزّت نفسها بأن هذا سيمنع أربطة الحقيبة من الإحتكاك بكتفيها.

ـ طراز أنيق للغاية.

قال ماكس ذلك بخبث فرددت ساخرة:

ـ إنه أحدث طراز هذا العام.

وإذ رأت شبه ابتسامة على شفتيه لم تعد تشعر بثقل حقيبتها، فعادت لترفعها على ظهرها.

فقدت كايرو حساب الوقت عندما أخذ الطريق يتلوى صعوداً حول سلسلة لا تنتهي من المنعطفات الجبلية الحادة. كانت أحياناً تجد نفسها تسير بمحاذاة الجدار الصخري وكأنها ستقع إلى الجانب الآخر.

بعد أولى هذه المحن، شحب وجهها بتوتر، وقطب ماكس جبينه وهو يراها تجفّف وجهها بيد مرتجفة. فسألها بفظاظة: «هل أنت بخير؟».

فرفعت رأسها فوراً: «بأحسن حال».

وشعرت بارتياح بالغ عندما وصلا أخيراً إلى نهاية الممر بعد ساعات، فقال لها: «لقد انتهيت من الجزء الأسوأ من الطريق، وهو سهل تقريباً من الآن فصاعداً».

لم تستطع أن تجيبه لصعوبة تنفسها، وتعجبت لتشجيعه لها. لكنها أومأت شاكرة وهي تمد يدها إلى زجاجة الماء. شعرت بأصابعها تنتفخ في هذه الحرارة فلم تستطع فتح الحقيبة على ظهرها. ففتحها ماكس لها كما فتح زجاجة الماء وهو يهز رأسه ساخطاً.

ـ شكراً.

شهقت بذلك وهي ترفع الزجاجة إلى فمها دون اهتمام بضيقه، لشدة سرورها.

عندما أنزلت الزجاجة عن فمها، تملكتها الدهشة وهي ترى ماكس يبتسم رافعاً يده بالتحية. التفتت إلى الخلف فرأت رجلين يسرعان نحوهما من بين الصخور، ومرت لحظة أخذت تتساءل فيها هل كانت تتخيّل ذلك. كانا يلبسان أحذية خفيفة من البلاستيك، وكل منهما يعلق في كتفه حقيبة.

ـ ماذا يفعلان هنا؟

همست بذلك لماكس بينما هما يتقدمان منهما باسمين: «إنهما مهرّبان، أنهما يحضران الشاي ويأخذان اللبان».

قال لها ذلك من جانب فمه وهو يجلس القرفصاء مع الرجلين يتحدثون، فيما هما يدخنان السجائر التي قدمها لهما، وقد تجاهلاها تماماً لكونها امرأة. فجلست إلى الجانب. كان لماكس ابتسامة مذهلة بجاذبيتها عندما يختار أن يستعملها، ولاحظت بحقد أنه لم يبتسم لها قط بهذا الشكل. ترى، أي شيء غير عادي وجده في هذين المهربين؟

كان الرجلان ينظران إليها بفضول، وعندما شرعا بالرحيل ابتسما لها، ودخلا أخيراً إلى الممر الجبلي وهما يلوّحان له بالتحية.

سألته بارتياب: «ما سبب كل هذا؟».

ـ إنهما يظنان أنك رائعة الجمال.

قال ماكس هذا بلهجة تدل على أنه لا يشاركهما هذا الرأي.

ـ إنهما فقط يحسداني على (امرأتي).

ـ أرجو أن تكون أوضحت لهما أن هذا غير صحيح.

قالت ذلك وقد جُرحت كبرياؤها، فقال بضيق:

ـ وكيف أفعل هذا؟ هل تريدين حقاً أن يُذاع أن فتاة وحدها من دون حماية تجول في النجد؟ أولئك الرجال لا يمنعهم مانع من اختطاف فتاة شقراء إلى بلادهم.

قالت بلهجة لاذعة: «يدهشني أنك لم تبادلني بكيس من الشاي ما دامت سنحت لك فرصة».

فرد عليها بخبث: «ليتني فكرت في ذلك، لكانت صفقة رابحة. علبة شاي هي أخف حملاً، وأسهل وأنفع لي من شقراء مدللة».

كانت الشمس تغيب متوهجة كالذهب، بينما كايرو تجرّ قدميها جاهدة فوق أرض صخرية ذات مرتفعات ومنخفضات، حتى بدا ماكس وكأنه يقف عند حافة العالم. كان يبدو أمام الشمس وكأنه طيف أسود محفور في السماء المتوهجة، ما خطف منها الأنفاس رغم تعبها البالغ.

عندما وصلت إليه، أدركت أنهما كانا يقفان على حافة وادٍ. فأشار ماكس عبره قائلاً: «أترين تلك الشجرة هناك؟ ذلك هو المخيّم».

أخذت كايرو تحدق بصمت إلى شجرة الأرز الضخمة، التي بدت أنها نبتت من لا شيء. بعد لون الصخور الأسمر المتعب، بدت لها أوراق هذه الشجرة الخضراء شيئاً لا يصدق، وصبغ لون الشفق القرمزي الجوّ، ملطفاً من المناظر الصخرية ومضفياً على الشجرة لمسات ذهبية.

ـ ياله من مكان سحري.

قالت ذلك بصوت منخفض، فنظر إليها:

ـ يقولون إن عمر تلك الشجرة ثلاثة آلاف سنة.

ـ وكيف تعيش كل ذلك الزمن بدون ماء؟

لأول مرة تنسى كايرو الكلام معه بحدة.

ـ كانت الصحراء، فيما سبق، أبرد بكثير، وعندما نبتت تلك الشجرة كان حولها ماء كثير. وأصبحت جذورها الآن من العمق، بحيث تحتجز معظم مياه المطر.

لاذت كايرو بالصمت وهما يهبطان إلى الوادي، ثم يصعدان إلى الجانب الآخر. وعندما بدت لها نهاية الطريق، شعرت بالإرهاق يكاد يسحقها، وبدت الأمتار الأخيرة وكأنها لن تنتهي أبداً، ولكن ماكس سار بجانبها هذه المرة، وعندما تعثرت وأوشكت على السقوط، أمسك بذراعها بقوة يمنعها من ذلك. ثم سارعت وحدها نحو الشجرة. تركها ماكس تنهار تحت الأغصان، وقد منعها التعب من القيام بأي شيء عدا التحديق ببلادة إلى كيس مياه منتفخ يتدلى من فرع في الشجرة. قال وهو يشير إلى بعض الخيم الزائدة:

ـ هذا المخيّم يستعمله السائحون. عادة، عليك أن تقيمي في واحدة من ثلاث مناطق محددة. ولكن بما أنني أعمل لحساب الحكومة، فبإمكاني أن أقيم حيث أريد.

ونظر إليها هازلاً: «فاستفيدي من آخر متع الحضارة».

رفعت كايرو بصرها إلى كيس الماء الجلدي، ثم إلى الخيم البالية...

حضارة؟ وضحكت بضعف: «ما الذي فعلته لأستحق كل هذه الرفاهية الليلة؟».

ـ لقد رتّبت أمر إحضار تمويني على ظهر بغل.

قال ذلك غير مهتم بسخريتها. وغاظها أن تبدو عليه البرودة والإنتعاش، كما كان عند بداية الرحلة.

ـ وهذا يعني أنه بإمكاني العودة إلى هنا للتزود بالماء والطعام عند الحاجة، بدلاً من أن أحمله معي صعوداً في تلك الممرات الضيقة. إنها تأتي من طريق أطول بكثير، ولهذا لم تصل بعد. سنتناول الشاي مع وكيل المخيّم هنا أثناء الانتظار.

ثم سار نحو الخيم، وهو يأمرها بالبقاء مكانها وكأنها كلب. لكنها فكرت بضيق أن إطاعة أوامره لا تزعجها حقاً. فقد كانت مرهقة، بحيث ما كان في إمكانها أن تتحرك حتى ولو شاءت. بعد دقائق، عاد ماكس مع رجل عجوز

وقور حيّاها ثم جلس بعد لهما الشاي، بينما كان ماكس يتحدث إليه. وخففت حركاته الهادئة من تعب كايرو بشكل غريب، وهو يجلس متربعاً أمام النار يحمر بعض الشاي والنعناع والسكر في إبريق شاي.

رشفت كايرو الشاي بفضول، فوجدته لذيذاً بطعم النعناع ومنعشاً كذلك. وقال ماكس: «يجب أن تشربي ثلاث كؤوس، ثلاث فقط. الأول يجب أن يكون مراً، كالحياة، والثاني قوياً، كالحب، والثالث حلواً، كالموت».

شعرت بصوته العميق وكأنه يرتعش في كيانها، وكل ذرة منها تعي قربه منها. كان يجلس متربعاً كالرجل العجوز، وقد حنى رأسه نحو الوكيل بأدب. وذهلت مرة أخرى لإختلاف سلوكه مع الآخرين. كيف يمكن لرجل يتبادل النكات مع مهربين، أو يتحدث بهدوء إلى رجل عجوز، أن ينظر إليها بمثل هذا العداء.

كان الظلام قد أرخى سدوله، عندما أعلن وقع حوافر على الصخور وجلجلة أجراس وصول تموين ماكس. لم تكن كايرو تشعر بالجوع حينذاك، لكنه أمرها بتناول «الكوسكوس» الذي سخنه على نار الموقد. وعندما قدم إليها الطعام قالت: «هذا ليس ضرورياً. أحضرت طعامي الخاص».

فقال بضيق: «لا تكوني سخيفة، يا امرأة. عليك أن تأكلي شيئاً».

فقالت وهي تخرج من حقيبتها علبة فتحتها: «سآكل بعض البسكويت».

وكانت هذه تبدو جافة تقطع الشهية.

ـ فتات البسكويت لن تكفيك طويلاً.

ـ لست جائعة. إنني متعبة جداً لا أستطيع الأكل.

غرز ملعقة في صحن الطعام ثم دفعه بين يديها، يرغمها بقوله:

ـ لا يهمني تعبك أو جوعك. عليك أن تأكلي. وإذا لم تأكلي جيداً لن يكون بإمكانك السير. ولا أريد أن أشغل نفسي بك، عندما يغمى عليك من الجوع في منتصف الطريق ولكن... لقد خطر لي للتو أن بإمكاني تركك هنا لأعيدك مع البغال...

ـ لا. بل سآكل.

تباً لها إذا كانت ستسمح لنفسها بالعودة قبل إنهاء مهمتها، بعد أن وصلت إلى هذا الحد. أخذت تفحص محتويات الصحن بارتياب، ولكن عندما ذاقته وجدته لذيذاً ببهاراته، وأدركت أنها، في الواقع، جائعة للغاية. نظفت الصحن ثم أعادته إلى ماكس وهي تشعر بالذنب. وإذ لم يكن لديه سوى صحن واحد، كان عليه أن ينتظر إلى أن تنتهي قبل أن يتناول طعامه.

وقالت له بمذلة: «شكراً».

أعدّ ماكس القهوة بعد ذلك، فتشاركا الفنجان المعدني نفسه بصمت. كانت تشعر بتوتر خطر. لم يؤثر عليها أي رجل، من قبل، بهذا الشكل، خصوصاً شخص تكرهه كهذا، وجعلها هذا تشعر بتوتر الأعصاب. وفسرت كايرو ذلك على أنه بسبب الإرهاق وقسوة الطبيعة.

بدا ماكس غير منزعج إطلاقاً من وجودها. جلس مريحاً ذراعيه على ركبتيه، ويداه متشابكتان باسترخاء، وهو يحدق في الظلام مفكراً. وأخذت تتأمله سراً، هذا الإحساس الكامن بأنها سبق وعرفته من قبل قد أخذ يزعجها. لقد سبق وقابلت، فعلاً، ماكس في مكان ما.. أو رجلاً يشبهه تماماً.

سألته مخترقة الصمت: «هل لديك أقرباء؟».

فالتفت ينظر إليها. وتوقعت أن يجيبها بنفس الخشونة التي أجابها بها عندما سألته عن عمله، ولكنه قال فقط: «لدي أخت. لماذا؟».

ـ كل ما في الأمر هو أنني ما زلت أشعر بأنني أعرفك، فتساءلت هل يكون لك أخ عرفته في مكان ما.

ـ لا، أنا «وجوانا» فقط.

ـ جوانا أختك؟ ربما أعرفها.

أحياناً يبدو الإخوة والأخوات مختلفين تماماً، ومع ذلك يشتركون في ميزات عائلية.

ـ وهل تشبهك؟

وعلى ضوء النار الخافتة، بدا عليه الهزل.

ـ لا.. بل ربما هي أكثر شبهاً بك.

ـ أنا؟

وتملكها الذهول.

ـ آه، إنها لا تشبهك شكلاً، لأنها ذات جمال هادىء وليس صارخاً مبهرجاً كجمالك. كما أنها لا تملك نفس ثقتك بنفسك. لكنكما متشابهتان في أشياء أخرى. فأنتما الاثنتان من بنات المدينة، قبل كل شيء. وهي لا تستطيع أن تفهم أكثر منك، لماذا اخترت العيش في الصحراء. فالحياة في العراء هي بنظر جوانا لا تتعدى الجلوس في الشرفة.

فقالت ساخطة: «أنا لست كذلك».

ـ ألست كذلك؟ لا أستطيع أن أتصورك تخرجين لنزهة ريفية منعشة سيراً على الأقدام، بينما بإمكانك أن تكوني في متجر أو مطعم.

ـ حسناً..

وحاولت أن تتذكر آخر مرة ذهبت فيها إلى الريف.

ـ لست بحاجة إلى الخروج لأتمشى. فأنا أزاول كثيراً من الرياضة. أذهب يومياً إلى ناد رياضي.

فرد ساخراً: «ما زلت آمنة بين الجدران. لا أدري لماذا تشعر فتيات مثلك ومثل جوانا بالخوف من الهواء النقي، أنت تحبين العيش في بيئة مصطنعة كلياً».

ـ هراء!

ـ هذا ليس هراءً. أنت تريدين الحصول على الكهرباء بضغطة زر.. وعلى الماء بفتح الصنبور... تذهبين إلى كل مكان بالسيارة، تلك الصناديق المعدنية الخاصة التي تبعدك عن بقية العالم. أنت لا تهتمين بالطقس وإنما بما عليك أن تلبسيه.. أيكون ثوباً حريرياً أم قميصاً مع سترة؟

راحت تضحك بقلق. فقد ذكرها ذلك بتلك الأيام التي لم يكن لديها ما تعمله سوى التفكير في ثيابها.

ـ هل أنت بهذا الشكل مع جوانا؟

ـ أي شكل؟

ـ يبدو أنك تنتقد أسلوب حياتها، كانتقادك لأسلوب حياتي. آمل أنها

تجيبك بما عليك أن تفعله بآرائك!

فقال بابتسامة ملتوية:

ـ جوانا ليست كذلك. إنها لا تجرؤ، ولأنني أعرف هذا، فأنا لا أنتقدها.

فقالت بجفاء:

ـ لا يبدو أنك تستعمل هذا الأسلوب معي.

فقال هازلاً هازئاً: «لأنك أقدر منها على الدفاع عن نفسك، فأنا لم ألحظ فيك عدم الجرأة على الرد».

فقالت متذمرة:

ـ لا أظن أحداً يجرؤ على الرد عليك. ولا عجب في أنك لا تريد أن يخالفك أحد في الرأي، فأنت معتاد تماماً على التصرف كما تريد.

فقال بلهجة لاذعة:

ـ هذا غريب، لأن هذا هو رأيي فيك أنت. أنت تدللت وترفهت طوال حياتك، فأصبحت كنبات مستنبت في بيوت زجاجية لا يستطيع العيش خارجها، لأنه يموت إذا لفحته نسمة هواء بارد، أو إذا احتك بالعالم الحقيقي. فأنت لا تستطيعين احتمال بيئة وعرة كالصحراء.

ـ ربما، لكنني هنا في الصحراء الآن.

ورفعت رأسها تنظر إليه متحدية.

ـ نعم، إنك هنا فعلاً.

قال ذلك ببطء وكأن هذه الفكرة جديدة عليه. ساد صمت متوتر، وخفضت نظرها إذ لم تعد تستطيع النظر إليه.

ـ أين سأنام؟ في الخيم؟

ـ إذا شئت. لكنني أرى أن تنامي معي.

قال ذلك فاهتزت أعصاب كايرو للصورة التي بعثتها كلماته في خيالها.

ـ معك؟

ما إن هتفت بذلك حتى رفع حاجبيه.

ـ لا حاجة بك للتصرف كعانس غاضبة، فأنا لم أكن لأعرض عليك قضاء

ليلة عاطفية محمومة معي. جميع الرجال هنا يتساءلون عنك، لذلك أنصحك بألا تفسدي الانطباع الذي كوّنوه عن أنك صديقتي، هذا كل شيء.

عضت كايرو شفتها، كانت فكرة النوم بقربه مقلقة للغاية، لكنها وجدت اقتراحه منطقياً، واخيراً سألته متظاهرة بالعقلانية: «وأين سننام إن لم يكن في الخيم؟».

ـ هنا.

وسحب من حقيبته حصيرة للنوم وألقى بها بجانب النار.

ـ ماذا؟ على الأرض؟

فأجاب بصبر مبالغ به.

ـ نعم، على الأرض. ماذا كنت تتوقعين؟ فندقاً بخمس نجوم؟

ـ لا أدري... لم أكن أظن... ربما في خيمة؟

ونظرت من فوق كتفها إلى الخيم خلف الشجرة.

ـ لماذا لا ننام هناك؟.

ـ لأنني أحب النوم تحت النجوم. لا أحب سقفاً فوقي، فهذا يجعلني أشعر كمسجون بل كواقع في فخ؟

فنظرت إليه باستغراب: «واقع في فخ؟ لا بد أنك تنام تحت سقف أحياناً. كيف كنت تتدبر أمرك في إنكلترا؟».

فهز كتفيه: «لست عنيداً إلى هذا الحد. ولكن إذا كان لي أن أختار، فأنا أفضل النوم في العراء».

ـ هذا حسن جداً إذا كنت وحدك، ولكن ماذا لو كنت مع آخرين؟

ـ مثلك؟

ـ لا، أعني... شخصاً أقرب إليك. زوجة مثلاً.

فنظر إليها وهو يبسط حصيرته: «أنا لست متزوجاً».

ـ ولكن إفرض ذلك. هل كنت تجر زوجتك إلى هنا وتجعلها تنام تحت النجوم؟

ـ يبدو أنك مهتمة جداً بهذا يا كايرو! لماذا تقلقين على زوجتي، علماً بأن

www.elromancia.com

زواجي أمر مستحيل الحدوث؟!

شعرت بوجهها يتوهج، وسُرّت للظلمة، وقالت: «هذا غير مهم. كنت فقط أتساءل ألا تشتاق إلى أسرتك وأصدقائك؟».

ـ أصدقائي هنا. أما بالنسبة إلى أسرتي... حسناً، هناك جوانا طبعاً، لكنها تعيش حياة مختلفة. كل ما في الأمر أنني لم أعد أنسجم مع تلك الحياة، ولا أظنني انسجمت قط.

وأخذ يحدق في اللهب. ثم تابع:

ـ أتصور نفسي أحياناً في بيت جميل كبيتها، أذهب إلى العمل يومياً، وأجلس خلف مكتب أسبوعاً بعد أسبوع، فيتصبب مني عرق بارد. وجوابي لك هو نعم.. أتخيل نفسي مقيماً هنا بقية حياتي... أو في أي مكان مشابه.

ـ ألا تشعر أبداً بالوحدة؟

بدا وكأنه نسي وجودها، ولكن عندما سألته نظر إليها ساخراً.

ـ ياله من سؤال أنثوي! ألا تعنين لماذا لا أتزوج؟

ـ حسناً، ولماذا لا تتزوج؟

ـ لأن كل الإناث اللاتي عرفتهن يفضلن النوادي الليلية على الاستلقاء تحت النجوم. فإذا تزوجت، أريدها فتاة تستطيع العيش في الصحراء، وتحبها كما أحبها، لا فتاة متسمّرة إلى الأبد برفاهية البيت.

واستقرت عيناه عليها باستخفاف. فتملكها الانزعاج، وقد تأكدت من أنه يظنها من الفتيات اللاتي لا يريد الزواج منهن. حسناً، لا داعي لأن يظنّ بأن كلامه يزعجها! فليس لديها أدنى رغبة في أن تمضي حياتها في مكان كهذا. يمكنه أن يهزأ كما يشاء من بيت أخته. لكنها، هي، كايرو، متلهفة إلى أن تكون هناك الآن، حيث النظافة والدفء. هناك الإنارة الكهربائية، والسرير المريح، بينما كل ما لديهما هنا هو ضوء النار المتحرك وحصيرة للنوم على أرض جرداء. قال لها فجأة وكأنه ندم على حديثه الطويل هذا:

ـ الأفضل أن تنامي الآن لأن أمامك مسيرة طويلة في الصباح.

ـ ألا يمكنني أن أغتسل أولاً؟

ـ يمكنك ذلك، إذا كنت مستعدة لتدبير أمر الملابس المبتلة، فما من حمام مناسب، كما ترين.

كانت تبدو قذرة من التراب والعرق. أمسكت المنشفة التي ناولها ماكس إياها، بتنهيدة خافتة، ثم سألته: «إلى أين أذهب؟».

ـ ما رأيك بهذا المكان؟

فقالت ببرودة:

ـ أفضل الانفراد بنفسي.

ـ أفهم ذلك، ولكن اذا جلت في الظلام قد تدوسين على عقرب.

ـ عقرب؟ هل هناك عقارب حقاً؟

فابتسم ساخراً:

ـ وحيّات أيضاً، وعناكب. وهي، كأكثر مخلوقات الصحراء، تظهر في الليل. وهكذا عليك أن تنتبهي إلى مواقع قدميك.

نظرت حولها متوترة الأعصاب وفجأة لم يعد الظلام يبدو لها مكاناً منعزلاً يغريها.

وأخيراً تنهد ماكس قائلاً:

ـ إسمعي، كفى هياجاً واضطراباً، إذا كنت تريدين الاغتسال، فاغتسلي، ولكن لا تسرفي في المياه.

ودفع نحوها بوعاء ماء، مضيفاً بسخرية:

ـ سأكون سيداً مهذباً وأعدك بألاّ أنظر إليك. ولكن أسرعي بحق الله، فأنت لست الوحيدة التي تريد أن تنام.

وأدار ظهره يواجه النار. واغتنمت الفرصة فسحبت كيس زينتها من حقيبتها، وشعرت بالسرور لإحضاره معها. بإمكانها، على الأقل، أن تنظف وجهها بشكل صحيح. جلست في الظل، منتبهة إلى قربه منها. لكنها كانت متلهفة إلى الإغتسال.

ـ ألم تنتهي بعد؟

سألها هذا بينما كانت تدعك ساقيها بالمرطّب.

ـ لا تنظر حولك!

ـ أنا لم أنظر حولي، وإنما أعجب فقط لما تفعلينه بتلك الفوطة، ما الذي أخذ منك كل ذلك الوقت؟ يبدو أنها أشياء كثيرة لم أحسب حسابها!

ـ أحب الشعور بالنظافة.

قالت هذا وهي ترتدي قميصاً مقفلاً، وكان هذا فضفاضاً قصيراً.

ـ لا أدري لماذا تزعجين نفسك بالتنظيف وغداً تعودين قذرة مرة أخرى.

فتجاهلته كايرو. قد لا تهتم المرأة التي تعجبه بالنظافة، لكن من قال إنها تريد أن تعجبه.

بسطت حصيرة النوم قرب حصيرة ماكس.. ولكنها لم تقترب منه كثيراً، مظهرة عدم الاهتمام. لقد امتثلت لنصيحته في عدم النوم بمفردها، لكنها لم تشأ الاقتراب منه كثيراً. فقد ضايقها اليوم بما فيه الكفاية.

ـ هل قررت تفضيلي على العقرب؟

وأضاءت النيران شعرها وهو ينسدل إلى الأمام مخفياً وجهها. ثم قالت ببرودة دون أن تنظر إليه: «تقريباً»!

أخذ ينظر إليها وهي تنفض ملاءة النوم ثم تمددها على الحصيرة، بدت خفيفة رقيقة لا يمكنها حمايتها من لدغة العقرب، فضلاً عن الحيات والعناكب.

ـ لماذا لم تحضري معك كيس نوم؟

سألها ذلك بحدة وكأنه قرأ افكارها.

ـ لم أفكر في أنني سأحتاجه في الصحراء.

ـ ألم تعلمي من كل أبحاثك الشهيرة التي قمت بها قبل حضورك بأن جو الصحراء يصبح بارداً في الليل؟

فقالت مدافعة عن نفسها: «لا أستطيع أن أصدق أنها تصبح باردة إلى ذلك الحد».

ـ ليس لديك فكرة، أليس كذلك؟ يخيفني التفكير في ما سيحدث إذا كنت مسؤولة عن أناس آخرين في رحلة خطرة إلى مكان وعر كهذا.

ردت بغضب: «إسمع، سأكون على ما يرام».

ولكن، مع مرور الساعات ازدادت برودة الجو. في أول هذا النهار، عندما أخذت بارتقاء الممر الشبيه بالفرن، تمنت أن تمضي بقية حياتها في جوّ بارد. أما الآن، فقد أخذت تتقلب تلتمس الدفء. يالله من مكان فظيع! كل شيء فيه متطرف، ومن المستحيل أن يشعر فيه المرء بالراحة.

استدارت على جنبها، فأمكنها أن ترى ماكس دافئاً مستغرقاً في النوم داخل كيس نومه، لا يبعد عنها سوى أقدام قليلة. كان وضعه مريحاً جداً. شعرت بالاستياء لذلك لكنها لم تستطع إلا أن تتمنى لو أنها وضعت حصيرتها أقرب إليه. كان الظلام حالكاً والأصوات تتضخم في سكون الليل. وشعرت بمزيد من الخوف. ماذا لو زحفت إليها حية أو عقرب؟

وفجأة، شق الظلام عواء يجمد الدماء، فانتصبت كايرو جالسة وهي تشهق، بينما قلبها يخفق وقد اتسعت عيناها بذعر، واستجاب للعواء عواء آخر، ثم آخر، وسرعان ما امتلأ الظلام بعواء مرعب. كيف يمكن لماكس أن ينام في مكان كهذا؟

التفت بالملاءة بإحكام. ما الذي تفعله هنا في هذا المكان البائس؟ كان ماكس على صواب، فقد كان يمكنها أن تجد عملاً حقيقياً منتظماً، لكنها تركت بيرس يقنعها بهذه الفكرة الجنونية. إنها تشعر بحنين إلى الوطن.

كانت ترتجف خوفاً وبرداً وتخاف أن تخرج من ملاءة نومها.

مالت بجسمها واستطاعت أن تجر إليها حقيبة الظهر، لكي تخرج منها قميص ماكس لترتديه فوق قميص نومها فقد يدفئها.

سألها في الظلام بصوت ناعس متضايق ما جعلها تجفل:

ـ ألا يمكنك البقاء هادئة؟ لقد أمضيت الليل كله في حركة دائمة، كانت الصحراء مكاناً هادئاً مسالماً قبل مجيئك.

ـ مسالماً؟

قالت ذلك بمرارة وأسنانها تصطك.

ـ كيف يمكنك أن تصف هذا... هذا الكابوس بالمكان المسالم؟ كان عليّ أولاً أن أتحمل الشخير، ولدغ البعوض، وكل أنواع المخلوقات الفظيعة تعدو

حولي، وها إن الذئاب الآن تعوي تطلب الدماء!

ـ إنها مجرد بنات آوى فقط.

قال ذلك بهدوء أغاظها فارتفع صوتها: «بنات آوى؟ هذا رائع».

كانت على وشك الإصابة بنوبة هستريا.

ـ إنها لا تهتم بك. العقارب والحيات لا تهاجم إلا دفاعاً عن النفس، فإذا بقيت جامدة مكانك، فلن تؤذيك.

وعاد ينام على جنبه ويغمض عينيه قائلاً: «إستلقي فقط واهدئي».

عادت كايرو تستلقي بحذر، وهي ترتجف برداً. يجب أن ترتدي ذلك القميص. لكن أين وضعته يا ترى؟

ـ ماذا تفعلين الآن؟

بدا صوته وكأنه يحاول السيطرة على أعصابه.

ـ أنا أبحث عن قميصك.

قالت ذلك باستياء.

ـ قميصي؟ من المؤكد أنك لا تشعرين بالبرد.

قال ذلك متهكماً، فرمقته باشمئزاز.

ـ بل أشعر بالبرد. سيسرك أن تعلم أنني متجمدة من البرد والتعب والخوف. وأتمنى لو أنني لم أسمع بك ولا بصحرائك اللعينة!

وراحت تكافح لفتح سحّاب الحقيبة، لماذا لا... آخ!

جلس ماكس وهو يتمتم شاتماً.

ـ ماذا حدث الآن؟

فصرخت نائحة: «كسرت ظفري».

ثم أجهشت بالبكاء، فقد كانت النقطة الأخيرة التي أفاضت الكأس.

نهض ماكس، وهو يشتم. ثم نفض حذاءه حذراً من العقارب، وسار نحو كايرو التي كانت تجهش بالبكاء بتعاسة داخل ملاءة نومها، ثم أوقفها.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أحاول الحصول على قسطٍ من النوم.

قال ذلك بوضوح وهو يجلسها على كيس نومه، ثم تابع: «ولن أحصل على ذلك وأنت لا تكفين عن الحركة والبحث هناك».

وألقى بحصيرتها بجانب حصيرته، ووضعها عليها وكأنها حزمة حطب. ثم فتح سحاب كيس نومه ليبسطه فيصبح لحافاً لها، وأخيراً ألقى بالكيس فوق نفسه، قائلاً: «لو كنت أعلم أن كسر ظفرك يحطم معنوياتك، لكسرت أحد أظفارك هناك في المخيّم».

وجدت كايرو نفسها تشعر بشيء من الدفء ولكن ما وترها هو وجودها قربه. كان قلبها يقي يخفق بين ضلوعها، وقالت بحدة: «معنوياتي لم تتحطم».

ـ لماذا كل ذلك البكاء إذن؟

ـ لم أكن أبكي... كنت متعبة فقط. أنا بألف خير.

ـ آه حسناً، إذا شئت أن تعودي إلى مكانك...

فقالت بسرعة: «لا. أعني لا أريد أن أزعجك مرة أخرى».

قالت ذلك بلهجة ناعمة. كانت تشعر بالدفء، ولم تشأ أن تترك هذا الدفء يذهب.

ـ حسناً إذاً، هل لك أن تقفلي فمك وتنامي؟

ـ أراهن على أنك تقول ذلك لكل الفتيات.

تمتمت بذلك بلهجة لاذعة، فشعرت، دون أن ترى، بابتسامة فوق رأسها. رغم إحساسها بالدفء لم تتوقف أسنانها عن الاصطكاك، وعندما سرى فيها الدفء تدريجاً، ابتدأت عضلاتها المتعبة تسترخي، واستطاعت أن تنظر إلى معالم الصخور المرتفعة نحو السماء. لم تعد تشعر بالرهبة إزاء سكونها وضخامتها المرعبة. حتى عواء بنات آوى بدا وكأنه يبتعد تدريجاً.

لأول مرة، تلاحظ كايرو النجوم، لم ترها قط من قبل بهذه الكثرة. كانت تحتشد معاً مبددة ظلمة السماء بضوئها. لماذا لم تلاحظ من قبل تألقها؟

فكرت في ماكس الذي لا بد اعتاد التحديق فيها بهذا الشكل لليالٍ لا تحصى. لا بد أن عالمها يبدو له بعيداً للغاية! إنه على صواب فحياتها محدودة

جداً. بإمكانها أن تدعي بأن لندن مدينة عالمية فسيحة مليئة بالمتعة والنشاط. ولكن، إذا كانت صادقة مع نفسها، يجب أن تعترف بأن حياتها فيها محدودة، فهي تذهب إلى الأماكن نفسها، وترى الوجوه نفسها. منذ متى قابلت شخصاً مختلفاً؟ ربما ثرثرت لخمس دقائق مع شخص ما.. في حفلة ما.. لكنها لم تدرك هذا الضيق إلا بعد أن عرفت ماكس. ولأول مرة تشعر كايرو بالأسف لأنها لم تعرفه في ظروف أخرى. ما أغرب أن يتمكن رجل لم يخف كرهه لها، من أن يبث فيهاالأمان إلى هذا الحد! أدركت أنها ترى كل شيء بوضوح تام. هل كانت الأمور ستختلف لو قابلت ماكس في لندن؟ هل كانت ستبدأ بملاحظة ظلال الأشجار على الرصيف، أو كثرة أصص الزهر على عتبات النوافذ، أو الشفق الوردي فوق نهر التايمز؟ هل صحيح أنها لم تزعج نفسها قط بالتوقف لتتأمل ذلك من قبل.

عبست وهي تنظر إلى النجوم. لم تأت إلى الصحراء لتأخذ دروساً في معرفة الذات ودوافع المشاعر، فذلك يبعث على الضيق. إنها هنا في عمل، وإن لم يكن كما توقعته بالضبط.

وابتسمت ناعسة وهي تتذكر بهجتها عندما عرض عليها بيرس العمل معاً.

لقد تملك كايرو الحماس، وأغرتها الصورة المتألقة للحياة التي رسمها لها بيرس. تصورت نفسها طائرة بين باريس وميلانو، وربما راكضة حول مدريد وفي يدها لوح للأوراق، أو في شوارع فرانكفورت تحل مشاكل المواصلات. لم تحلم قط في أن الأمر سينتهي بها على قمة نجد في الصحراء، نائمة في العراء قرب رجل تعرفت إليه بالأمس فقط.. رجل يراها، فلا يرى كايرو كينغسوود البارعة الفاتنة، وإنما فتاة مزعجة ليس فيها أية جاذبية..

تنهدت دون وعي وهي تندسّ تحت الغطاء. إنها دافئة مرتاحة على الأقل. كان ماكس نائماً، فهي تسمع صدره يعلو ويهبط.

كانت عينا كايرو تغمضان ببطء الآن، فإذا بهما تتسعان فجأة. ما الذي كانت تفكر فيه؟ هذا ماكس... لكنها كانت، من التعب، بحيث لم تستطع أن

تستنكر أفكارها... عليها فقط أن تستلقي هنا بهدوء، كما قال لها ماكس، ثم تفكر غداً في هذا. غداً ستعود إلى طبيعتها ولن تشعر بحنين غريب إلى هذا الرجل القريب البعيد!

بين النوم واليقظة، شعرت بماكس يتحرك في نومه، متمتماً بكلمات مبهمة. تنهدت بخفة وارتياح، وتملكها شعور مبهم وسط هذا الصمت الساحر.

استسلمت إلى حس بالأمان غير محدود، واستغرقت في نوم عميق. هزها ماكس، يوقظها قبل الفجر بقليل، فتمتمت كايرو باحتجاج وهي تجذب الكيس إلى ما فوق رأسها.

ـ دعني!

وفي اللحظة التالية، تلاشى فجأة دفء الكيس. هزها ماكس بقسوة: «هيا، إنهضي».

جلست كايرو بجهد وهي تفرك أجفانها الثقيلة، متثائبة.

ـ لا يمكن أن يكون هذا وقت النهوض. فقد نمت لتوّي.

ـ لو أنك لم تقلقي راحتنا ليلة امس لكنّا نمنا وقتاً أطول.

فتحركت بضيق وهي تتذكر بكاءها لكسر ظفرها. لم يكن من عادتها التصرف بذلك الشكل الهستيري.

ـ لم أكن طبيعية الليلة الماضية وأنت تعلم هذا.

قالت ذلك بهدوء فأجاب بنظرة ساخرة: «بالعكس، فتصرفاتك كلها مناسبة، حتى إنني لم أتوقع أن يحدث كسر ظفرك مثل تلك المأساة».

فاحمر وجهها.

ـ لم يكن الظفر بل تراكم الأحداث التي نالت مني وأنا متعبة.

ـ أية أحداث؟

سألها بشيء من التسلية. وكان مشغولاً بإشعال موقد ليغلي بعض الماء، بينما تابع قائلاً:

ـ كانت ليلة هادئة عادية في الصحراء. أنت الوحيدة التي اختلقت أسباب

الازعاج. ربما ظننت بأنك، ما دمت استطعت النوم في لندن، فستستطيعين النوم في أي مكان. لا بد أنك اعتدت على أبواق السيارات والأماكن العامة والتلفزيون والجيران يتشاجرون طوال الليل. كان يجب أن تكون الليلة الماضية هادئة تماماً بالمقارنة مع ذلك.

فقالت عابسة: «إنها نوع مختلف من الضجة».

ـ حسناً، عليك أن تعتادي عليها.

قال ذلك وهو يتصب واقفاً ويرمقها بنظرة خالية تماماً من العطف وفكرت هي، بمرارة، في أنه يستمتع حتماً بآلامها، وقالت:

ـ لا تخبرني أيضاً بأن ما من فندق بخمس نجوم لأتطلع إليه بشوق، الليلة أيضاً.

فضحك بشكل غير منتظر.

ـ ما دمت لاحظت النقص في خدمة الزبائن هنا، أرى أن تنهضي وتنتبهي إلى الموقد، بينما أذهب أنا لأتحدث إلى وكيل المخيّم.

نظرت إليه باستياء وهو يبتعد. لم تعجبها الطريقة التي استمتع بها بضيقها. لو أن لديه ذرة من اللياقة، لحاول تيسير الأمور لها، بدلاً من مراقبتها بتلك النظرات الساخرة والتعليقات اللاذعة. كما أنها لا تحب الطريقة التي كان يخفق فيها قلبها عندما يبتسم ضاحكاً.

كان من الطبيعي أنها تنشد الدفء. وهذا لا علاقة له، على الإطلاق بشوقها إليه... فلا بد أنها كانت تحلم أو أنها من التعب بحيث راحت تهلوس.

* * *

٤ ـ زمن التحدي

تخلصت كايرو من ملاءة النوم المتشابكة بشيء من الصعوبة. كانت، من التعب، الليلة الماضية بحيث لم تستطع أن تتصرف بشكل طبيعي، لكنها استعادت الآن سيطرتها على نفسها.

عندما عاد ماكس، كانت متربعة على حصيرتها، تنظر في مرآتها الصغيرة وتضع كريماً مرطباً على وجهها.

ـ أعددت القهوة وفنجانك هناك قرب الموقد.

قالت ذلك من دون أن تنظر إليه.

بعد أن حدّق إلى ما تفعل غير مصدق، تناول فنجانه قائلاً:

ـ أظنني قلت لك أن تتركي كل هذه الأشياء وراءك.

ـ هذا صحيح.

ـ ولكنك تجاهلت نصيحتي.

فخفضت المرآة ونظرت إليه بشراسة.

ـ نحن لسنا في الجيش، يا ماكس، أنت قدمت لي نصيحة، وأنا اخترت عدم قبولها، وهذا كل شيء. أنا قادرة على تقرير أموري بنفسي، بعكس ما تظن، لدي فكر متزن تماماً.

فقال: «حتى الآن لم أرَ شاهداً على ذلك».

تجاهلته وهي تتابع عملها بجد، فأنهت ترطيب وجهها ثم وضعت الزيت

الواقي من حروق الشمس.

نظر إليها عابساً وهو يرشف قهوته:

ـ كم مستحضر تحتاجين، بحق الله؟

ـ لا أريد أن أصاب بحروق شمس، قد يسرّك أن تكون بشرتك كالجلد القديم لكنني لا أريد ذلك لنفسي.

فقال باستسلام مبالغ فيه:

ـ إنني أتساءل عما إذا كنت تقدّرين المكان الذي أنت فيه يا كايرو. لا أظن المصورين في انتظارك هنا ليقفزوا ويأخذوا لك صورة.

ـ أنا لا استعمل أياً من مواد التجميل هنا، بل أحافظ فقط على بشرتي.

ـ وفي نفس الوقت، تتوقعين مني أن أقف هنا أنتظرك بصبر، بينما تنشغلين أنت بنفسك.

فقالت بحدة: «لم ألاحظ أنك صبور، لن ينتهي العالم إذا أمضيت خمس دقائق أعتني فيها بنفسي. وأنت أول من سيتذمر إذا أصابتني ضربة شمس».

قذف ماكس بحثالة قهوته بعيداً بشكل ينبيء عن ضيقه.

ـ لن تحتاجي إلا إلى قبعتك لحمايتك. لا يبدو أنك تقدّرين ما أقوم به من عمل. ولا أستطيع أن أمضي النهار كله متسكعاً في انتظارك.

ـ ظننت أن الوقت (له معنى آخر في الصحراء).

قالت ذلك بلؤم مستشهدة بكلام سابق له.

فحملق فيها: «صدقيني، يبدو أن الوقت يتضاعف عندما أمضيه معك! والآن أسرعي».

كانت كايرو ما تزال متصلبة العضلات تتألم من مسيرة أمس. وعبست وهي تعلق الحقيبة على ظهرها. وكان ماكس قد حملها وعاء ماء آخر وكذلك بعض الطعام، فترنحت في البداية تحت الثقل الإضافي.

ـ لن أستطيع أبداً حمل هذا!

ـ إذا كان بإمكانك حمل كل مواد التجميل هذه، يمكنك أن تحملي أيضاً ما قد ينقذ حياتك. وإذا شئت أن تتركي شيئاً وراءك، لست بحاجة لأن أخبرك ما

ينبغي أن يكون.

سكتت كايرو وتبعته، وبعد فترة استرخت عضلاتها مع إعادة التمرين. وعندما اعتادت على حملها، أخذت تنظر حولها.

كان يسيران في طبيعة غريبة من الصخور المتناثرة والأعمدة الحجرية الضخمة التي نحتتها الريح بأشكال خلاّبة. لم يكن هناك ثمر، فلم تستطع كايرو منع نفسها من الإعجاب بطريقة تنقل ماكس بين الصخور والأحجار، مدركاً على الدوام إلى أين يسير. كان شخصاً هادئاً وكأنه جزءٌ من تلك البيئة الخشنة وليس خائفاً منها.

حسدته كايرو لهذه الثقة الكاملة بالنفس، وهي واثقة من أنها تبدو غريبة تماماً هنا. ومع ذلك، فقد بدت لها الصحراء أقل رهبة اليوم.

ـ هطل المطر هنا منذ شهر، وذلك لأول مرة منذ ثلاثين عاماً.

قال ماكس ذلك عندما وقفت كايرو هانفة وهي ترى مجموعة من الأزهار الصفراء نابتة من صخرة عارية.

ـ إنك محظوظة لرؤيتها بهذا الشكل.

نظرت كايرو، بعد ذلك، إلى الوديان حيث كانت المياه تجري. كانت الفراشات تتراقص في الجوّ. لولا خوفها من استياء ماكس، لأمتعت نفسها بكل ذلك. أخذت تفكر بذلك بشيء من الدهشة وهي تتبعه بين الصخور، ثم وقفت مبتهجة لمرأى حقل شاحب الخضرة ممتد أمامها، وهتفت وهي تسير إلى الأمام باسمة:

ـ ما أجمل هذا!

لكنها ما لبثت أن أخذت تحدق غير مصدقة وهي ترى (العشب) هذا يرتفع حول ماكس وهو يسير أمامها.

نظرت إلى أسفل، فرأت أنها كانت تسير على بساط من الحشرات فأطلقت صرخة مختنقة، وهي تغطي عينيها بيديها وترجع إلى الخلف بسرعة، فالتفت إليها يسألها بفروغ صبر: «ما هذا؟».

فقالت، متلعثمة بذعر، وهي تخفض يديها: «هذه... هذه الأشياء...

ما هي؟».

ـ هذا جراد.

وشمل أسراب الجراد بنظرة فاترة.

ـ لقد ابتدأت تتكاثر مع سقوط المطر، يبدو وكأنها ستصبح وباء هنا، أليس كذلك؟

فصرخت فيه: «كيف يمكنك أن تنظر إليها بهذه البساطة؟ إنها اشبه بقصص الرعب! إنها تثير الاشمئزاز».

فقال: «بالعكس، المواطنون هنا يصنعون منها طبقاً شهياً».

ونظر إليها ضاحكاً.

ـ أتريدين شيئاً منه لعشائك الليلة؟

ـ آه، ياله من أمر مثير للاشمئزاز.

قالت ذلك مغضنة الوجه، ثم سألته ضارعة: «هل نحن مضطران للسير عبرها؟ ألا يمكننا السير حولها؟».

ـ لا، لا نستطيع.

وأشار إلى بساط الحشرات الممتدة نحو جوانب الوادي.

ـ العثور على طريق آخر يستغرق ساعات من الوقت. وأنا لست مستعداً لتغيير طريقي لمجرد أنك لا تستطيعين تحمّل بعض الحشرات غير الضارة على الإطلاق.

ـ «بعض» الحشرات؟ هناك ملايين منها.

فقال دون شفقة وهو يعاود السير: «لا تكوني جبانة! هيا، فهي لن تؤذيك».

ـ لا أستطيع.

فناداها من فوق كتفه:

ـ بل تستطيعين. ما دمت استطعت أن تأتي إلى غربة الصحراء هذه حيث لا مال ولا أصدقاء، وتسلق ذلك المضيق دون تذمر... بإمكانك القيام بهذا.

نظرت كايرو في أثره بدهشة، إنها المرة الأولى التي يمدحها فيها، وكان هذا

كافياً لها لاستجماع شجاعتها وتجربة الخطو على هذه الحشود المقززة من الحشرات. راح الجراد يهرب من حولها منزعجاً، بينما أخذ الكثير منها يدور حول ركبتها وهو يطن. ارتجفت وهذه تحتك بساقيها. يا ليتها ارتدت بنطلوناً بدلاً من هذا الشورت!

كان ماكس قد استدار ينظر والاستسلام في ملامحه: «أسرعي!».

فقالت بحدة: «أنا قادمة».

ثم انكمشت خوفاً عندما أخذت جرادة تطوف حول وجهها: «أي».

فتنهد ماكس بشكل مبالغ فيه.

ـ بحق الله. بهذا الشكل، لن نصل إلى أي مكان.

ثم تقدم نحوها يمسك بيدها يجرها معه. فتشبثت متلهفة بما منحتها أصابعه من طمأنينة. وزاد تشبثها بيده عندما أخذ الجراد يتطاير حولهما. ونظر إليها: «هل أنت بخير؟».

فأومأت بصمت. كانت تحدق أمامها مباشرة، حريصة على ألا تنظر إلى الأسفل حيث حشود الجراد حول قدميها.

ـ مسكينة كايرو. لا أظنك وضعت الجراد في حسابك عندما خططت لهذه الرحلة.

إزاء نبرة العطف غير المألوفة هذه في صوته، نظرت إليه. كانت ملامحه تعكس مزيجاً غريباً من المبالغة والاستسلام والتسلية، فخفضت بصرها وقد احمر وجهها.

ـ لم أحسب حساب أي من هذا. لا بد أن هذا سرَّكَ.

ـ لماذا؟

وبدت عليه الحيرة فأجابت بشيء من المرارة: «في كل مرة أظهر حماقة جديدة، تظن أنت أن هذا يثبت وجهة نظرك في أنني لا أصلح لشي».

فأجاب بخشونة: «المشكلة معك هي أنك لم تُخلقي لتعيشي في مكان هكذا فأنت من ذلك النوع المصقول الذي خلق للرفاهية».

ـ لن يطول أمر هذا، ما دمت لا أستطيع الاستحمام بمياه ساخنة أو حتى

غسل شعري.

وتنهدت. فمنحها ماكس إحدى ابتساماته العريضة غير المتوقعة.

ـ يبدو أن هذه ستكون خبرة تبني شخصيتك، يا كايرو. النجاة من أفواج الجراد، وعدة أيام دون غسيل شعر... أي اختبار للشخصية أكبر من هذا يمكن أن تحصل عليه فتاة؟

ـ لا أريد أن أبني شخصيتي.

قالت ذلك متجهمة، وقد كرهت أن يجد في اشمئزازها من هذه الحشرات الفظيعة داعياً للتسلية. كان الجو مليئاً بطنين ملايين الأجنحة. واشتدت أصابعها على يد ماكس على الرغم منها، فقال بشيء من الهزل:

ـ أظنك ستصبحين أقوى على كل حال. ومع ذلك، إذا ظننت أنك لست بحاجة إلى أي عون...

وتظاهر بأنه سيبتعد عنها فقالت مذعورة:

ـ لا تبتعد!

قالت ذلك بشكل غريزي وسرعان ما ندمت على كلماتها هذه. وكان ماكس رفع حاجبه فنظرت إلى عينيه متوسلة: «أعني... أرجوك...؟».

بدت ابتسامة غريبة ملتوية على شفتي ماكس: «لا تقلقي يا كايرو. لن أبتعد.. سأبقى قريباً منك».

اجتازا السهل بصمت. لا بد أنه يراها تستدعي الشفقة، كما أخذت تفكر بذلّ. لكنها بقيت متشبثة بيده إلى أن خفت أسراب الجراد ثم تلاشت في النهاية، وعندما أصبحا، مرة أخرى، على الأرض الحجرية الخالية، وقف ماكس ونظر إليها.

ـ هل أنت بخير الآن؟

فتمتمت وقد احمر وجهها: «نعم. شكراً».

شعرت بنفسها تسير بشكل مضحك. كان يسير أمامها، فأخذت تنظر إلى ظهره، وقلبها يخفق إليه.

عليها أن تتمالك نفسها. وأخذت تعنف نفسها، فهي هنا في مهمة

محدودة. لن تسمح لقلبها أن يخونها. أخرجت آلة التصوير، محاولة أن تقنع نفسها وماكس بحسها المهني، وأخذت عدة لقطات أثناء سيرها لتعطي هايدن دين فكرة عن المناظر الطبيعية. لكنها، في أعماقها، ابتدأت تشعر بأن ماكس كان على حق، إذ بعد أن تسلقت النجد بنفسها، رأت أن لا سبيل إلى القيام بالتصوير هنا. من المستحيل أن يحضر الجميع إلى هنا، ناهيك عن المعدّات الثقيلة. يمكنها أن تتصور كيف سيتقبلون الأمر عندما تخبر فريق عرض الأزياء أن عليهم أن يناموا في العراء مع بنات آوى، وهم المعتادون على فنادق بخمسة نجوم وليس على حصيرة تحت النجوم، مثلها. سيكون الجميع في غير مكانهم الطبيعي كما أدركت. وتنهدت بكآبة وهي تفكر في أن هذه هي فكرة ماكس عنها.

كان ماكس ينتظرها تحت صخرة ضخمة ناتئة. الصخور هنا متصدعة ذات شقوق وأخاديد ضيقة. وأخذت كايرو تنظر إليها أثناء مرورها.

وضاقت عينا ماكس قليلاً وهو يرى اكتئاب كايرو وهبوط عزيمتها.

ـ ماذا حدث؟

فتنهدت وهي تستلقي في الظل مسرورة للخلاص من الشمس.

ـ لا شيء، لا شيء غير عادي، على الأقل. كنت أفكر لتوّي في استحالة ترتيب أمر التصوير هنا.

ورفعت بصرها إليه، وقد تألقت عيناها الخضراوان بلمحة من تمردها القديم، ثم تابعت: «حسناً، هيا قل».

ـ قلت لك هذا!.

هبط ماكس جالساً بجانبها.

ـ عليّ أن أبحث عن مكان بديل، ولكن لا يمكنني القيام بذلك وأنا ملتصقة بك. متى تعتزم النزول من النجد؟

ـ عندما أصبح مستعداً لذلك يا كايرو، وليس قبل ذلك. وأنت، حسب تعبيرك، ستبقين ملتصقة بي هنا حتى أنهي ما جئت لأجله. لست بحاجة إلى أن أذكرك بأنك جئت معي من دون دعوة. أليس كذلك؟

ونظر إليها بحقد، فقالت بكآبة:

ـ هذا صحيح. لقد أوقعت نفسي في هذا، والآن عليّ أن أتحمل العواقب.

ـ هذا أحسن ما يمكن أن يقال.

ووقف هو يبتسم متجهماً.

ـ أريد أن أفحص هذه المنطقة، وهكذا سأتركك مع أسفك على نفسك. ستتحسن نظرتك إلى الأمور بعد أن ترتاحي، على كل حال. إبقي هنا ولا تبتعدي بحيث لا أستطيع العثور عليك مرة أخرى، ولن أتأخر.

أومأت بتبلد، ثم أخذت تنظر إليه وهو يتوارى في أحد الشقوق. عليها أن تكون حذرة جداً، فلا تخبر هايدن دين بأن التصوير في النجد هو أمر غير عملي. أحسن ما يمكنها عمله هو أن تعثر على بديل ما، ثم تعود ومعها الترتيبات الكاملة... ولكن متى ستجد الوقت لتقوم بذلك؟

من بعيد، كانت تسمعه يصفر شارد الذهن. كل شيء على ما يرام بالنسبة إليه. ليس عليه أن يعود الأسبوع القادم ليقدم تقريره إلى هايدن دين. وكان بيرس قد وعد، مزهواً، بأنها ستعود بكل الترتيبات اللازمة، فكيف تعود إليهما صفر اليدين؟

أخذ ذهنها يحلّل المشكلة بقلق حتى أخذ الصمت اللانهائي للصحراء يؤثر عليها. لن تستطيع القيام بشيء حالياً، فاستندت إلى الخلف على حجر بارد وهي تتساءل عما يفعله ماكس. لا بد أنه مسرور لأنه أثبت لها أنه كان على حق منذ البداية. ومع ذلك، كان أي شخص آخر ليظهر مزيداً من الشماتة، اعترفت كايرو بذلك بإنصاف. فقد كان اليوم ألطف بكثير، ولم تكن نظرة التسلية في عينيه قوية، وقد بدا مختلفاً حقاً وهو يبتسم... كان قادراً تماماً على بعث الإطمئنان في النفس، أيضاً. فقد أدفأها الليلة الماضية، كما ساعدها في اجتياز بحر الجراد الفظيع ذاك. في الأمس كان صلباً قاسياً ولكن لا عجب من تذمره ذاك. إذ ليس ذنبه إن هي تهوّرت، لكن من الآن فصاعداً، ستكون هادئة سمحة الخلق.

كان المكان هادئاً جداً، فغرقت في تأملاتها. هل يمكن أن يصبح ماكس

أكثر لطفاً مما عهدته حتى الآن؟ وفجأة انتبهت، فقد تلاشى صفير ماكس منذ فترة.

نظرت إلى ساعتها. إنها في هذا المكان منذ ساعة تقريباً. كان ينبغي أن يكون هنا الآن... فاندفعت واقفة بذعر.

ـ ماكس؟

أخذت تنادي بصوت حاد مرتفع، لكن الجواب الوحيد كان صمتاً عميقاً ساخراً. «ماكس؟» عادت تنادي بمزيد من الإلحاح هذه المرة.

لا شيء.

أرغمت نفسها على الانتظار خمس دقائق أخرى بينما أخذ قلبها يخفق خوفاً. لم تشعر قط من قبل بمثل هذه الوحدة... حتى الفراشات بدت كأنها هجرتها. لم يعد ظهور جرادة يخيفها الآن. أرهفت سمعها لعلها تسمع ما يدل على وجود ماكس في مكان قريب... لكن ذلك لم يزد الصمت إلا عمقاً.

عندما مرت خمس دقائق، سارت مترددة نحو الممر الصخري حيث توارى ماكس. صحيح أنه طلب منها البقاء في مكانها، ولكن ماذا لو حدث له شيء؟

نظرت من مدخل الممر وعادت تناديه. ورددت الصخور صدى صوتها فارتجفت رغم حرارة الجوّ.

آه، تمالكي نفسك!

حدثت نفسها بذلك بحدة وهي تدخل الممر بحذر. قد يكون ماكس مصاباً غائباً عن الوعي بينما هي واقفة هنا ترتجف خوفاً.

كان الممر ضيقاً مظلماً، لكنها أخذت تتحسس طريقها باحتراس حتى وجدت نفسها في مكان واسع محاط بالصخور.

ضغطت كايرو يديها على خديها وحاولت التفكير بعقلانية. عليها ألا تخاف! وسارت بحذر وإذا بماكس يبرز من شق بين الصخور:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

وكانت أعصابها من التوتر، بحيث استدارت صارخة وقد أفسحت عيناها رعباً. فرفع ماكس حاجبه بضيق.

ـ ماذا جرى لك؟

فشهقت وقلبها يخفق بعنف: «لقد أخفتني».

فقال متجهما: «ما كان لك أن تجولي في هذا المكان. أخبرتك بأن تبقي حيث أنت. ألا تطيعين أبداً ما يقال لك؟».

كان بريق عينيه الرماديتين الماثلتين إلى الخضرة يبعث دوماً الاضطراب في نفسها. كانتا تبدوان غريبتين في ذلك الوجه الذي لفحته الشمس. لم يكن وسيم الوجه بشكل ملفت، فعظام وجهه صلبة جداً، وفمه وذقنه يوحيان بعناد بالغ. وكان في عينيه غموض وكأنه أمضى سنوات طويلة يحدق في ضوء ساطع بعينين ضيقتين.

وإذ أدركت فجأة أنها كانت تحدق فيه، حولت عينيها عن وجهه والارتباك يتملكها وهي ترى مبلغ سرورها برؤيته.

فقالت باضطراب: «جئت للبحث عنك. تأخرت فظننت أن مكروهاً أصابك».

ـ أنا قادر تماماً على رعاية نفسي، وهذا ما لا أستطيع قوله عنك. من الممكن أن تتوهي في تجوالك حول هذه الممرات. أرجوك أن تبقي، في المستقبل، حيث يمكنني أن أجدك، وتفعلي ما يُطلب منك.

ولم يكن في لهجته أي شكر لها.

ـ حسناً، إذا وقعت وكسرت ساقك، لا تتوقع مني المجيء للبحث عنك.

قالت ذلك بحدة ناسية تصميمها على ألا تعود إلى إغضابه.

فقال بالحدة نفسها: «لا ضرورة للتصرف بهذا الاستعلاء. لو أزعجت نفسك باستعمال عقلك، لأدركت أن اهتمامي فقط هو بسلامتك».

حملق كل منهما في الآخر متوتر الشفتين، إلى أن خلع ماكس قبعته ليمرر أصابعه بشعره ساخطاً، ثم عاد فحشرها في رأسه متنهداً:

ـ ما دمت هنا الآن، تعالي وانظري ماذا وجدت.

ثم قادها من ممر إلى آخر، إلى فسحة صغيرة، ثم قال، مشيراً إلى صخرة متدلية تستر سلسلة من رسوم بدائية على الصخر بلون الصلصال: صيادون،

نساء، أطفال وزرافات وماشية وكلاب وأشكال غامضة...

وقفت كايرو أمام ذلك ذاهلة وأخيراً سألت: «من رسم هذا؟».

ـ لا ندري، في الواقع.

قال ماكس ذلك بهدوء وقد تبدد التوتر الذي كان بينهما بالسرعة التي حدث بها، ووقفا متجاورين شاعرين بالرهبة إزاء هذه الصور الحية لماضٍ مندثر، وتابع يقول:

ـ كانت الصحراء مكاناً خصباً أكثر مما هي الآن. إننا نفترض أن قبائل من البدو مرت من هنا منذ ألوف السنين، لكننا غير واثقين من ذلك.

تملكها شعور غريب وهي تقف هنا مع ماكس، وهي تعلم أنهما ربما أول من يرى هذه الرسوم منذ آلاف السنين. أطالت النظر إلى صورة لامرأة تنحنى على طفل بحنان أزلي، وترك هذا فيها تأثيراً مدهشاً. ثم قالت وكأنها تحدث نفسها:

ـ ثمة أشياء لا تتغير أبداً. فالناس الذين رسموا هذه الصور عاشوا حياة مختلفة تماماً، لكنهم مثلنا، يحبون بعضهم بعضاً، يحبون أولادهم.

ومالت إلى الأمام لتمعن النظر في الصور، ثم تابعت: «هذه المرأة عمرها آلاف السنين، لكنها لا تختلف عني بشيء».

فنظر إليها بشيء من التسلية.

ـ لا أستطيع أن أتصورها ترفض التحرك دون مدير أعمالها، أو أنه مسموح لها بقضاء ساعاتٍ في تجميل نفسها يومياً!

ـ ليس هذا ما عنيته، بل إننا نشترك في الأمور الهامة في الحياة.

قالت ذلك جادة، بابتسامة مرغمة، فردّ دون اقتناع: «حقاً؟».

ـ لكنني كنت طفلة كغيري. ويمكنك أن ترى من هذه الرسوم أن أولئك الناس كانوا يحبون أولادهم، تماماً كما كان يحبني أبواي. يوماً ما، أريد أن أتزوج وأنجب أولاداً أحبهم، كما أحبت تلك المرأة ابنها.

ـ عجباً، فأنا لا أرى فيك صفات الأمومة.

قال ذلك وهو ينظر إليها مستغرباً، ويتفحصها بفتور.

ـ كنت أظنك تعتبرين الطفل مخلوقاً كمالياً تناولينه لمربية لكي تتفرغي لتجميل نفسك.

عادت كايرو تنظر إلى صورة المرأة المنحنية على الطفل وقد رقت أساريرها، وقالت باكتئاب بدون وعي منها.

ـ لا، فأنا أعشق الأطفال.

ـ من المؤكد أن فتاة مثلك يمكنها الحصول على زوج بسهولة.

أخذت كايرو تفكر في الرجال الذين كانت تخرج معهم. كانوا ظرفاء جذابين ولكن، لسبب ما، لم تستطع ألا أن تشعر بأنهم ما كانوا ليهتموا بها لو أن أباها لم يكن غنياً. وقد قلت الدعوات لها، فعلاً، بعد إعلان إفلاس أبيها. وتنهدت وهي تجيب:

ـ ربما كنت لا أرضى بأي رجل.

فقال بصوت خشن: «ألم تنتظري رجلاً غنياً؟».

فرفعت إليه عينين صافيتين: «بل أنتظر رجلاً يحبني حقاً».

ساد صمت قصير ازداد فيه احساس كايرو بوجوده بقربها. فشعرت بدافع لتقترب منه. كان هذا الدافع من القوة، بحيث ظنت أنها مالت نحوه فعلاً، فحوّلت نظراتها عنه بسرعة وكادت تقع فيما هي تتراجع إلى الخلف.

أمضيا تلك الليلة في أخدود مسقوف. لاذت كايرو بصمت غير عادي، شاعرة بتوتر غريب وكأنها مراهقة حمقاء. كانت بالغة الخوف من أن يقابل عينيها فيرى فيهما شوقها إليه. لم تفهم ما يحدث، فهي حتى غير معجبة به! فلماذا يختنق قلبها لمجرد التفكير فيه؟ لماذا يتملكها الدفء كلما كان على مقربة منها؟

حدثت نفسها بعنف بأن عليها أن تفكر في هايدن دين، أن تهتم بما تقوله لأبيها إذا ما انتهت هذه الرحلة بفشل ذريع، كما يبدو من الآن. وذلك بدلاً من التفكير في ماكس.

بدا ماكس مشغول البال هو أيضاً، وساد بينهما صمت طويل مثقل

بالتوتر. وتساءلت لماذا يخفق قلبها بهذا الشكل وهي تتأمله يشعل الموقد بزيت البارافين، إنه مجرد رجل عادي وقد صادف أن تكون معه في هذا الوضع. هذا كل شيء. وبعد أيام قليلة سيعودان إلى حياتهما العادية، وسيسرها جداً أن يقول الواحد منهما للآخر كلمة الوداع. وأخذت تعبث بالرمل.. كم مضى على معرفتها بماكس؟ ثلاثة أيام.. فقط؟

ومع هذا أصبح من المستحيل عليها أن تتصور بأنها لن تراه مرة أخرى. تلاشت حرارة الجوّ مع حلول الظلام. وحاولت كايرو جهدها أن تتصرف بشكل طبيعي، فأخذت تتحدث أثناء تناولها عشاء بسيطاً من الحساء والخبز، لكن عبثاً، فقد عاد ماكس إلى طباعه السيئة، ولم يحاول الاستمرار في الحديث. فتقطع صوتها وسرعان ما خيّم عليهما صمت متوتر.

اشتركا في فنجان قهوة واحد كما فعلا الليلة الماضية. وأخيراً قررت أن تناقش مكان نومها، فقالت بتوتر: «كان عليّ أن أحضر معي كيس نوم».

فهز كتفيه: «هذا هو الأمر العقلاني، ولكن ما الفائدة الآن؟ ليس أمامك سوى الاستمرار في استعمال كيسي».

ـ آسفة. أني أحرمك منه ولا شك أن ذلك يزعجك.

فقال بفظاظة: «هذا لا يزعجني أبداً... أنا مسرور لإقراضك إياه».

وتصلب جسم كايرو، وعاد فجأة ذلك الإحساس الذي يضايقها منذ تعرفت إليه، فانتصبت في جلستها تحدق إليه غير مصدقة، كيف نسيت ذلك؟ كان عليها أن تتذكر ذلك حالما رأته. وقطب جبينه لما بدا على ملامحها، وسألها: «ما الأمر؟».

فقالت ببطء: «أنا أعرفك. هذا ما شعرت به منذ البداية. أنت ابن «داڤينا فوذرجيل»».

عندما كانت أصغر سناً، كانت «داڤينا» سيدة مجتمع معروفة، مشهورة بجمالها وحفلاتها ونجاح أزواجها الأثرياء. وكان «جيرالد فالكونر» أولهم، كما تذكرت كايرو الآن، كما كان أكثرهم ثراء. ولكن، بعد أن تركته داڤينا وتركت ولديها لأجل رجل وجدت فيه مزيداً من الإرضاء لغرورها ومباهاتها،

إنعزل عن الناس ولم تعد تسمع به.

وعندما لم يجب ماكس، سألته:

- إنه أنت، أليس كذلك؟

أخذ يحرك القهوة في الفنجان قبل أن يقول بمرارة: «أنا لا أعتبر نفسي كذلك.. ولكن، نعم. إنها أمي، غير أن معلوماتك قديمة. أعتقد أنها تسمي نفسها الآن السيدة كيلرمان».

هذا صحيح. وتذكرت كايرو أنها قرأت منذ أشهر في الصحفات الإجتماعية، عن زواج دائينا للمرة السادسة، وكانت تبدو في الصورة بنفس روعتها الماضية. كان من الصعب التصديق أن لديها ابناً بسن ماكس، لكن كايرو تعرف أن هذا صحيح، وتذكرت كيف قابلته لأول مرة.

نظرت إليه بطرف عينيها، أتراه يذكر؟ وتمنّت لو أنه لا يتذكر. كانت ليلة رأس السنة، وذلك منذ عشر سنوات تقريباً، وكانت دائينا، المتزوجة للمرة الرابعة، قد أقامت حفلة كبرى دعت إليها أكثر أعضاء المجتمع تألقاً وثراء، وقد صحب «جيريمي كينغسوود» ابنته كايرو الغالية، ذات السادسة عشرة التي تعلمت لتوّها كيف تستعمل جمالها الرائع، فاستمتعت إلى أقصى حد، واستطاعت جذب كل الشباب إليها. لكن واحداً بقي منيعاً إزاء سحرها. وهمست لصديقتها إميلي: «من هو ذاك؟».

حتى في أوائل العشرينات من عمره، كان ماكس من الانعزال، بحيث بقي بعيداً عن كل ذلك المرح حوله، وأجابتها إميلي حينذاك:

- إنه ماكس ابن دائينا. إنها تهمل، عادة، ولديها، لكنها شاءت تمثيل دور الأم في هذا العيد. وأظن ماكس كان يفضل البقاء مع أبيه، لكن أخته تحب أن تكون مع أمها، وهكذا أتى ليمثلوا جميعاً دور الأسرة السعيدة.

ثار حينذاك فضول كايرو إزاء ما بدا على ماكس من صعوبة المنال... ومع غرورها بنجاحها في أول حفلة اجتماعية راقية تحضرها، تراهنت، ضاحكة، مع صديقتها على أن تجعله يقع أسير سحرها قبل نهاية الليل.

وبكل ثقة فتاة جميلة في السادسة عشرة، إنطلقت لتفتنه لكن ماكس تجاهل

ابتسامتها وجمالها، وجرح ذلك إحساسها فصممت على الفوز بالرهان.

وعندما اقترب منتصف الليل، رأته يتسلل إلى الشرفة الواسعة، فلحقت به إلى حيث كان واقفاً، ويداه في جيبيه ينظر إلى الحديقة. كان لون سترة العشاء السوداء وربطة العنق تلائمه جداً، وضوء القمر على وجهه يبرز قسماته بوضوح.

تقدمت منه كايرو متظاهرة بالعفوية: «هل أنت وحدك؟».

فأغمض عينيه لحظة، ثم قال من بين أسنانه المطبقة: «كما ترين».

فسألته بابتسامة مغرية:

- ألا تريد مرافقةً لك عندما تحلّ السنة الجديدة؟

فاستدار يواجهها: «بصراحة، لا، وحيث أنك أغبى من أن تفهمي التلميح، فسأقول لك بكل وضوح إنني لا أهتم بأمثالك من الفتيات».

ضاقت عينا كايرو الخضراوان. لقد نشأت مدللة محبوبة طوال حياتها فلم تتعود أن يتحدث إليها أحد بهذا الشكل، اعتيادها على أن تنال ما تريده دوماً، جعلها لا تذعن بسهولة. لقد عقدت رهاناً بينها وبين إميلي، وصممت على الفوز به. فقالت:

- ألا أحصل منك حتى على كلمة لطيفة؟

- من يسمعك يصدق أنك تريدين مجرد كلمة لطيفة.. أنا أعرف ما تريدين.. ثم أقترب منها ناوياً أن يضمها إليه؟

ومدّ يديه إليها دون إنذار ليجذبها نحوه.

وفجأة، تملك الخوف كايرو.

- دعك عني!

- من يلعب بالنار عليه أن يتحمل حروقها.

كان ماكس بارداً قاسياً، فشعرت كايرو بالأرض تميد تحت قدميها وهي تكتشف، أنها تقوم بلعبة خطرة. لم يكن ماكس تلميذاً، ولكنه لم ينفذ تهديده لها بل اكتفى بالقول:

- لا مزاج لي لمجاراة مثيلاتك فابتعدي، ومارسي أساليبك هذه على من

ليس لديه مانع من التعرف إلى الفتيات المدللات الحمقاوات.

وهكذا هربت كايرو من أمامه وقد احمرت وجنتاها ذلاً. والآن، تعود إليها تلك الذكرى واضحة جلية، فشعرت بوجهها يتوهج مرة أخرى، وسرّها أن الظلام يمنع ماكس من رؤية ذلك.

ـ ربما لا تتذكرني. فقد تقابلنا مرة في حفلة.

التفت ماكس إليها وقد لمعت عيناه في ضوء القمر:

ـ أتذكرك تماماً، فأنت الفتاة التي كانت مصممة على نيل ما تريد، ولم تتغيري كثيراً.

عضت شفتها للهجته الساخرة: «ولماذا لم تقل إنك تذكرتني؟».

ـ لأنك أنت لم تتذكري، فلماذا أذكرك بحادثة لم تكن سارة لأيّ منا؟

وعادت إليها نفس مشاعر الذل والغضب، التي تملكتها عندما اندفعت هاربة من أمامه. طوال الوقت كانت تحاول أن تبدو سيدة أعمال هادئة، وكان هو يتذكرها مراهقة! فلا عجب من هذا الازدراء لها!

حاولت إخفاء ارتباكها بالضحك.

ـ أتعلم؟ لقد نسيت كل ما يتعلق بتلك الليلة. كانت مراهقة صغار حمقاء، أليس كذلك؟

لقد جعلتها قساوته في معاملتها تمحو هذه الحادثة من ذاكرتها.

ـ نعم.. حمقاء كلياً. وأرجو ألا تكوني بعدها قد تعودت على إلقاء نفسك على كل رجل مغرورة به؟

انقبضت يدا كايرو. لم يحاول التخفيف عنها. فقالت: «في الواقع، كان ذلك مجرد رهان بيني وبين صديقة لي. لم تكن أنت الدافع الأساسي».

ـ لقد خسرت رهانك.. فماذا قلت لرفيقتك؟

ترددت.

ـ وبماذا أخبرها... ادعيت فقط أنك رحلت فلم أجدك.

ـ فهمت.

واستقرت عيناه النافذتان على وجهها.

ـ حسناً، ذلك يفسّر سبب اهتمامك بي على كل حال، لأنني كنت أعلم أنني لست من النوع الذي يعجبك.

فقالت باختصار: «هذا صحيح».

فسألها بسخرية: «إذا لم أكن أنا من النوع الذي يعجبك، ما هو إذن نوعك المفضل؟».

تذكرت كايرو المشاعر التي تعتمل في نفسها تجاهه ومع ذلك قالت: «النوع المعاكس لك تماماً هو ما يعجبني».

ومن زاوية عينها رأت التسلية على شفتيه، فرفعت رأسها: «وماذا عنك أنت؟ ما هو نوع الفتيات الذي يعجبك؟».

تمدد ماكس على الرمال واضعاً ذراعيه تحت رأسه: «فتاة لا تنتمي إلى نوع خاص. بل تكون مميزة بنفسها».

شعرت كايرو بالغيرة تلوي قلبها: «ومن هي مثال الكمال هذه؟».

ـ لست واثقاً من أنها موجودة في هذا العالم.

قال ذلك بلهجة تشوبها المرارة. وعجبت هي كيف أحالته أمه الرائعة الجمال، والعديمة الوفاء مريراً إلى هذا الحد.

ـ إذا كانت موجودة، فأنت لن تعثر عليها في وسط الصحراء.

قالت كايرو هذا بحدة أكثر مما كانت تنوي، ونظر ماكس إلى ليل الصحراء الساكن، وقال: «ربما أعثر عليها».

أمضت كايرو وقتاً طويلاً في الاستعداد للنوم. نظفت وجهها وغسلت أسنانها، وهي تحاول أن تتأخر قدر إمكانها، راجية عبثاً أن ينام ماكس قبل أن تأتي إليه. لكنها، أخيراً، لم تعد تستطيع التأخر عن النوم بجانبه. كانت تفكر في ماكس طوال الوقت. كيف كان حينذاك وكيف أصبح. إنه الآن أضخم جسماً وأخشن وأصلب عوداً، والشرود النائي الذي كانت قد لاحظته في البداية، قد استحال الآن كفاءةً مميّزة. لكن عينيه ما زالتا كما كانتا، وكذلك القدرة المدمرة على بعث التوتر والاضطراب في كيانها.

رفعت كيس النوم وتسللت تحته مستلقية بصلابة على طرف حصيرتها،

لكن المكان كان ضيقاً. تململت لكي تتخذ وضعاً أكثر راحة، وذلك في الوقت الذي انتقل هو فيه على حصيرته، وشعرت به قريباً منها، فأجفلت كايرو مبتعدة وكأن عقرباً لسعها. فسألها مشاكساً: «ما الذي يجعلك متوترة بهذا الشكل؟».

ـ لا شيء، كل ما في الأمر أن النوم هكذا ليس مريحاً.

ـ هل أنت منزعجة لأنني صدمتك ذات يوم؟

ـ طبعاً!

وأطلقت ضحكة: «أنا لا أهتم لذكرى رجل عاملني ببغض!».

نهض ماكس مستنداً على كوعه لينظر إلى وجهها.

ـ وأي نوع من الرجال يهمك؟

ـ لا يهمني الرجال.

ـ لا أصدق ذلك.

قال هذا برقة وهو ينحني فوقها: «أنت كتلة من حياة وجمال.. وما زلت حتى الآن أذكر بهاءك في تلك الليلة».

جفّ حلقها واضطربت دقات قلبها، ثم قالت: «أفضل أن أنسى».

ثم تمتم: «أحقاً؟».

وسمّرتها نظراته. أرادت أن تحوّل عينيها عنه، لكنها كانت عاجزة فقد كان شديد القرب منها، وعاد يهمس: «أنت جميلة.. ساحرة؟».

وقعت كلماته في قلبها فشعرت بأنها تريد دفء هذا الرجل وحبه.

ولكنها نهرت نفسها فعليها ألا تقع في فخ ينصبه قلبها لها فقالت:

ـ ظننتك... لا تهتم بفتيات مثلي.

فقال: «هذا صحيح. ولكني لا أستطيع أن أنكر مدى سحرك وتأثيرك فيّ».

واستقرت نظراته على وجهها لحظة.

ثم تدحرج عائداً إلى حصيرته وكأنما لم يقل شيئاً.

لم تستطع كايرو أن تتكلم. فقد كانت ترتجف بسبب كلماته، ورأسها

يحترق غضباً ومذلة لأنه رغم تأثيرها فيه يحاول رفضها بشراسة ويحاول التعامل معها وكأنها داء معد.. قالت:

ـ أندري، أنت لم تتغير. ما زلت رجلاً قلبه من حجر.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ سم الأفاعي

تصلب جسمها إذلالاً وإن بقي قلبها ينبض. فتوقعت كايرو أن تبقى مستيقظة طوال الليل، لكنها سقطت فريسة نوم عميق سببه إرهاق بالغ.

تحركت عندما سقطت أوائل أشعة الشمس على وجهها. ففتحت عينيها ببطء وأخذت تطرف بأجفانها. كان الجوّ مخضباً بالنور الذهبي القرمزي، وبقيت لحظة مستلقية مليئة بالنشوة، ولكن ما إن تبدد أثر النوم، حتى عادت إليها ذكرياتها فتصلبت.

أحست بماكس ما زال مستلقياً بجانبها، والتفتت بحذر لترى إن كان ما يزال نائماً.

كان مستلقياً على بطنه، ووجهه نحوها. التوى فمها عندما استقرت نظراتها عليه. كانت عضلات كتفيه القويتين مسترخيتين. بدا أثناء النوم أصغر سناً وأقل صلابة، كما كان فمه مقوساً قليلاً، وكأنه يبتسم في الحلم.

التوى قلبها وهي تتذكر كيف يؤثر فيه هذا الرجل. كيف ستتمكن من مواجهته هذا الصباح؟

خرجت من ملاءة نومها بهدوء، ولم تغير القميص الطويل الذي نامت به. أرادت الخروج قليلاً للانفراد بنفسها.

عندما بلغت الأعمدة الصخرية، ترددت. كان ما يواجهها أشبه بمضيق بين جبلين. إذا هي سارت فيه فترة فلن تضيع، وسيكون سهلاً عليها العثور على طريقها عند العودة إلى ماكس.

أسرعت كايرو في سيرها، محاولة الهرب من هذا الرجل. ستتظاهر بأنها لم

نعرفه أو تره. وعند اللزوم ستظهر برودة كالثلج، وتتجاهله على الدوام. عند ذلك سيعرف حجمه

انحرف الممر قليلاً، ليهبط فجأة في منحدر عميق مغطى بالصخور والحجارة. فتأرجحت، ثم قفزت هابطة من دون تفكير على صخرة ملساء.

كان نسيم الصباح منعشاً نقياً، فبدأت تشعر بمزيد من الهدوء وهي تستمر في السير، وأدركت أنها تركت ماكس وهذا النجد الموحش الرائع الجمال يستوليان على مشاعرها، هي التي طالما تباهت بحنكتها الهادئة. حسناً... لن يحدث هذا مرة أخرى.

وحين قررت أنها أصبحت أكثر من قادرة على مواجهته، استدارت عائدة من حيث أتت. ولم تدرك أن العودة إلى ماكس ليست سهلة إلا بعد أن وصلت إلى المنحدر الذي كانت قد قفزت منه من دون وعي.

عضت شفتيها وهي تنظر إلى الصخرة المثبتة على منتصف المنحدر. كانت عالية لا تستطيع بلوغها. فسارت بحذر تبحث عن طريقة ما للتسلق، ولكن دون جدوى. وتملكها الذعر. عند نزولها بدا لها هذا المنحدر سهلاً جداً لكنها تراه الآن أملس كلوح زجاج.

تراجعت إلى الخلف وهي تشهق، محاولةً أن تتنفس. ما أسوأ هذا! كل ما عليها أن تفعله هو أن تتسلق عدة أقدام، لا بد من أن هناك طريقة ما!

تساءلت إن كان كان ماكس قد استيقظ وافتقدها. أتراه يأتي للبحث عنها؟ مجرد التفكير فيه ثبت من عزيمتها. تنفست بعمق ثم قفزت مرة أخرى نحو الصخرة الملساء، ولكن وفيما هي تعود إلى الأرض، تعثرت ولوت كاحلها فصرخت ألماً، ثم جلست على التراب، وهي تعض شفتها إلى أن تحول الألم الحاد إلى وجع هادىء متواصل.

لم ينكسر كاحلها على كل حال، كان مجرد التواء، لكنه مؤلم للغاية. لكنها لن تستطيع الصعود إلى تلك الصخرة على الإطلاق. أخذت تفكر في ذلك وقد تزايد ذعرها. ما الذي جعلها بهذا الغباء والاستهتار؟ وهذا لا يقاس بما سيقوله لها ماكس عندما يعثر عليها! هذا إذا عثر عليها! أخذت تكافح إلى أن وقفت

على قدميها، مجفلة كلما لمس كاحلها الملتوي الأرض، وأخذت تنادي: «ماكس! ماكس!» واقشعر جلدها لصدى الصوت قبل أن تسمع جواباً، وهي لا تكاد تصدق. . . كان يأتي من بعيد خافتاً عبر واضح.

ـ كايرو؟

ـ أنا هنا.

أجابت منادية وهي تكاد تبكي ارتياحاً، وبعد دقائق، ظهر ماكس على قمة المنحدر، بدا لها خيالاً أسود والسماء من خلفه، فلم تستطع رؤية ملامحه جيداً ولكن غضبه كان واضحاً. ومع ذلك، لم تهتم. فهو موجود وهي آمنة. . وهذا يكفي.

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟ هل تعلمين منذ متى أبحث عنك؟

سألها ذلك بغضب عنيف، فأجابت: «أردت أن أتمشى فقط، فلم أجد النزول صعباً، لكنني لن أستطيع العودة، كما أن كاحلي التوى».

رد بوحشية وغضبه يزداد اضطراماً: «أرجو أن يكون مؤلماً جداً. لقد سبق ومنعتك من التجوال وحدك. ولكن هل تسمعين؟ لا! أي شخص يعرف أن النجد مكان خطر. . ولكن ليس كايرو كينغسوود! لا. . . فهي فقط تنهض من النوم، ثم تذهب لتتمشى من دون أن تعلمني بذهابها. لا أظنه خطر ببالك أن تتساءلي عما سأشعر عندما أستيقظ فأجدك قد رحلت».

لو حصل هذا فعلاً فلا بد أنه شعر بالسرور، كما أخذت تفكر. لكنها لم تشأ أن تثيره أكثر من هذا، فقالت بخنوع: «آسفة».

ـ يوماً ما، ستعلمين أنه فات أوان الأسف. لو كان لدي عقل لتركتك حيث أنت، وعلمتك درساً!

قال ماكس هذا رافضاً اعتذارها، لكنه أخذ ينقل خطاه نازلا بحذر على المنحدر الحجري، ثم انحنى فوق الصخرة الملساء التي كانت كايرو تحاول الوصول إليها، ومدّ يديه نحوها:

ـ إذا استطعت أن تتمسكي بيدي الاثنتين، يمكنني أن أسحبك.

حاولت مرتين قبل أن تتمكن من ذلك. جذبها إلى أعلى ببطء وقد احمر

وجهه جهداً، بينما أسندت هي نفسها على الصخرة بقدمها السليمة حتى تمكنت من أن تسقط كتلة واحدة على جسمه الصلب. مضت لحظة طويلة لم يكن يُسمع فيها سوى لهاثهما. ثم قال آمراً: «دعيني أرى قدمك».

وأمسك بقدمها بقبضة حازمة.

ـ إنه التواء، وهذا أحد الأخطار التي يتعرض لها المرء.

ونهض واقفاً بحذر في هذه المسافة المحدودة، وهو يتابع: «لم أعرف يوماً من يماثلك غباء وأنانية».

فذعرت رغم علمها بأن غضبه ناتج عن خوفه عليها.

ـ لقد أرغمتني على إحضارك إلى هنا، ثم أعقتني وألهيتني عن عملي. والآن، وقد ابتعدنا عن المخيم مسافة يوم كامل، إذا بك تلوين كاحلك لأنك لم تصغي إلى نصيحتي! أظنك تدركين أنه لولاك، لأنهيت عملي هنا اليوم، ثم بدأت رحلة العودة إلى المخيّم. أما الآن، فعلينا أن ننتظر إلى أن يتلاشى ذلك الورم، وتتمكنين من السير من جديد.

ـ يمكنني السير اليوم.

قالت ذلك بصوت خافت. إنه على صواب، فهي لم تفكر إلا في نفسها. وتابعت تقول: «أنا بحاجة فقط إلى أن أربطها».

ـ لا تظهري المزيد من الغباء. لا يمكنك الذهاب إلى أيّ مكان على قدمك المصابة، اليوم.

وأمسكها بخشونة وجذبها إلى أعلى من على الصخرة الملساء وهو مازال يتكلم.

عضت شفتها كي لا تصرخ وهي تعرج خلفه، لكن الحجارة أخذت تنزلق تحت قدميها، وكانت قد أصبحت على القمة تقريباً عندما تزحلقت وكادت تسقط إلى القاع مرة أخرى، لولا قبضة ماكس التي كانت ممسكة بذراعها. غير أنه سرعان ما فقد توازنه فتعثر، لكنه استطاع التمسك بالأحجار بيده الطليقة قبل أن يتمكن من إلقاء نفسه إلى الخلف.

رأت كايرو يده تنزلق بين حجرين، ثم سمعته يتنفس بحدة جمّدت الدم في

عروقها أكثر مما لو صاح ألماً.

ـ ماكس؟

وتشبثت بذراعه بيديها عندما رأت وجهه يشحب. ركع على ركبته ممسكاً بمعصمه.

ـ ماكس؟ ماذا حدث؟

كانت عضلات رقبته نافرة كالحبال وهو يكافح الألم ثم قال بجهد بالغ: «إنها لسعة، إبحثي عما لسعني».

نظرت كايرو حولها بذعر، لتلمح ذيل حية تنسلّ مبتعدة بين الصخور. فقالت بلهفة: «ماكس، علينا أن نخرج من هذا المنحدر. هل يمكنك الحركة؟».

وفيما بعد، لم تدرك كايرو قط كيف تمكنا من صعود الأقدام القليلة الأخيرة إلى قمة المنحدر حيث انهار ماكس.

تجاهلت ألم كاحلها وأخذت تجره نحو ظل صخرة ناتئة ثم سقطت بجانبه على ركبتها.

كان فمه مكشراً بألم بالغ، وهو يميل مستنداً إلى الخلف على الصخرة والعرق يتصبب في جبينه. كان قابضاً على يده يسندها إلى صدره، وعندما مالت فوقه، رأت أثر ثقبين يشعين. فسألها بصوت متحشرج: «هل رأيت ما هو؟ هل يوجد آثار؟».

فهزت رأسها: «كانت حية، لكنني لا أعرف ما نوعها».

فأغمض ماكس عينيه متمتماً: «علينا أن ننتظر، لنرى! إننا لا نعرف مدى سمّيته».

تملكها الذعر لمظهره، لكنها أرغمت نفسها على الهدوء: «ماكس، سأذهب لإحضار أدوات الإسعاف الأولي من حقيبتك».

قالت ذلك بوضوح راجية أن يسمعها: «إبق جامداً كما أنت، قدر إمكانك حتى أعود».

كانت عيناه ما زالتا مغمضتين، لكنه استطاع أن يومىء.

ـ أعدك بألاّ أتاخر.

أخذت تعرج بأسرع ما تستطيع. كانت كل خطوة تؤلم كاحلها. لكنها أطبقت أسنانها رافضة أن تريح نفسها.

لم تستطع أن تصدق طول المسافة التي مشتها دون وعي. إذا استمر الحال بهذا الشكل فلن تصل إلى ماكس الا بعد دهور. ليتها تستطيع الإسراع قليلاً. لو أنها فقط لم تلو كاحلها... يا ليتها لم تذهب في تلك النزهة التعسة على الإطلاق!

وصلت إلى المغارة، كان وجهها بالغ الشحوب. كان قد حزم حقيبته، وكيس نومه ملفوف عليها، فقررت أخذها كلها. لن يتحرك ماكس من مكانه إلى أن يشعر بالتحسن، ويمكنها العودة فيما بعد لأخذ حاجياتها.

كانت متلهفة للعودة إليه، لكنها أرغمت نفسها على ربط كاحلها أولاً ثم ارتدت ملابسها وحملت الحقيبة على ظهرها. كانت قوة الإرادة وحدها هي ما يمكنها من السير في الأخدود، فيما هي تتصور ماكس مستلقياً يعاني ألماً مبرّحاً.

كان مستلقياً دون حراك عندما وصلت إليه كايرو، فظنت، لأول وهلة، أنه ميت. وهمست وهي تشعر بالتعاسة: «لا».

اسودت الدنيا حولها، وإذا به يحرك رأسه فسقطت بجانبه، غير مهتمة بألم كاحلها.

ـ ماكس! آه، ماكس! هل تسمعني؟

وبصعوبة بالغة، فتح عينيه ونظر إلى وجهها متمتماً: «هل عدت؟».

ـ آسفة لتأخري. لم أستطع الإسراع كثيراً.

وفتحت زجاجة الماء وقربتها من فمه ليشرب. ثم أخرجت منشفة صغيرة بللتها بالماء، وأخذت تمسح بها وجهه وعنقه، لم تعرف إن كان هذا ينفعه حقاً، لكنها كانت متلهفة للقيام بشيء. كانت شفتاه بيضاوين بشدة. فسألته آملة ألاّ يبدي صوتها ما تشعر به من رعب: «ما الذي تشعر به؟».

فهمس بجيب وقد مست شبه ابتسامة شفتيه: «بأنني حيّ، وهذه علامة

طيبة. لو كانت أياً من تلك الحيات التي أخافها، لكنت ميتاً الآن».

أخذت كايرو تتفحص مواد الإسعاف، وبداها ترتجفان خوفاً وإرهاقاً. لم يكن من مصل ضد لسعة الحيّات، لكنها وجدت بعض حبات البنسلين، فناولته أربعاً منها، ثم بسطت كيس النوم وجرت ماكس ودثرته جيداً. كان جسمه ينضح عرقاً بغزارة.

لماذا هي عديمة الفائدة بهذا الشكل؟ كان الحق مع ماكس، فهي لم تستطع التعامل مع بيئةٍ بهذه. كانت قد قرأت كتاباً عن الحياة في الصحراء قبل مجيئها، وكان يحتوى على فصل كامل عن كيفية التعامل مع لدغ الأفاعي، لكن كل ذلك غاب عن ذهنها الآن.

إنها بحاجة إلى جبيرة. عادت تبحث في الأخدود فوجدت بعض الغصون الجافة من شجر السنط التي تنمو في هذه الأماكن، فاختارت أكثرها نعومة واستقامة لصنع الجبيرة ثم جمعت البقية لإشعال النار عند المساء.

ـ أتعرفين ما تصنعين؟

سألها ذلك عندما جلست بجانبه وابتدأت تضمد ذراعه بثقة أكبر مما تشعر به، وهي تتذكر وجوب طمأنة المريض، وقالت بمرح: «آه، نعم. فقد أخذت دروساً في الاسعاف الأولي».

ـ أحقاً؟

فنظرت إلى وجهه مضطربة. كان الألم يغشي عينيه الخضراوين الرماديتين ومع ذلك لمعتا بلمحة ساخرة. فقالت تعترف: «في الواقع لا... أردت فقط أن أوحي لك بالثقة. أنا أستعمل فقط حسن تقديري».

ـ لم أكن أعلم أن لديك أياً من هذا.

همس ماكس بذلك وقد عادت الابتسامة إلى زاويتي فمه.

ـ لم أثبت نفسي في هذا الإطار، أليس كذلك؟

قالت ذلك وهي تحني رأسها فوق الضماد، وقد غمرها الندم.

مد يده السليمة ولمس يدها، قائلاً بصعوبة: «آسف لتعنيفي لك، يا كايرو. كنت خائفاً ألاّ أعثر عليك أبداً، وحين رأيتك فجأة فقدت أعصابي، لا

أدري لماذا...».

تلاشى صوته، فقالت كايرو تطمئنه.

ـ لا بأس، فأنا متفهمة لتصرفك ذاك. وأنا أستحق كل ما قلته لي. هذا غير مهم الآن، على كل حال. كل ما يهم هو شفاؤك.

ونظرت إلى ما صنعت، بقلق:

ـ هل الجبيرة مشدودة كثيراً؟

فهز رأسه بصعوبة، وتمتم: «ربما تعلمين ما تقومين به».

بدا أنه عاد إلى نعاسه بعد ذلك. فأنهت كايرو ربط الجبيرة، ثم عادت تعتدل في جلستها وهي تدفع شعرها خلف أذنيها. كان ما يزال يعرق بغزارة، والألم بادٍ عليه.

في لهفتها إلى شغل نفسها، حوّلت انتباهها إلى التفتيش في حقيبة ماكس لترى ما لديهما من طعام. لم يكن الماء مشكلة مباشرة، لكنها لم تعرف إلى متى يكفي إن طالت إقامتهما هنا. عليها أن تكون حذرة في استعماله.

كان في أمتعة ماكس موقد بارافين صغير الحجم. وبعد محاولة منها، أوقدته لتعد له الشاي الحلو الذي أنعشه قليلاً. وعندما انتهى، أعدت لنفسها كوباً آخر. ولم تكن قد تناولت شيئاً قبل أن تخرج في نزهتها المصيرية، فأحست بالجوع والإرهاق حتى كاد يغمى عليها. لكنها لن تستطيع العناية بماكس إن أغمي عليها...

وهكذا أكلت برتقالة وعدة قطع بسكويت.

كان هذا أشق يوم في حياة كايرو. حوالى الساعة الرابعة، عندما خفت شدة الحر، عادت إلى مقرهما الأول لتحضر حقيبتها. كانت أخف وزناً من حقيبة ماكس، ومع ذلك كلّفها حملها إلى الأخدود كل قوتها الإحتياطية. حرك السير كل عصب في كاحلها المصاب. لكنها كانت تصرف بأسنانها وتحدث نفسها بأنها تستحق كل لحظة ألم.

لم يبد على ماكس أنه لاحظ غيابها. وعندما وضعت يدها على جبهته، وجدته يلتهب بالحمى، كما أن وهج الغروب زاد من تورد وجنتيه.

كان غروب الشمس رائعاً للغاية، وأخذت كايرو تتأمل امتداد الظلال، حتى إن الرمال والصخور كلها كانت مزخرفة باللونين الأسود والأحمر. وجدت نفسها تتأمل هذه التفاصيل الدقيقة... وكأن التركيز عليها ينسيها خوفها على ماكس.

عندما ساد الظلام، حاولت إشعال النار مستعملة أغصان السنط الجافة. ووجدت بعض الصعوبة في إشعالها إلى أن تذكرت مفكرتها. أخذت تحدق فيها وكأنها جزء من حياة ماضية، أتراها كانت حقاً بهذه الأهمية لها؟ تذكرت، بمرارة، كل تلك السنوات التي كانت فيها مدللة مطلقة العنان. أما كانت تعلمت شيئاً مفيداً؟ مثل دورة في الإسعاف الأولي؟ ما كان ذلك ليستغرق منها وقتاً طويلاً، ولما كانت بهذا القدر من عدم الكفاءة الآن.

أخذت تراجع صفحات أرقام التليفون، وتتأمل الأسماء، وكأنها أسماء أشخاص رأتهم في الأفلام. كم منهم يستطيع أن ينفعها أو يخفف عنها في ظرف كهذا الآن؟ أخذت تفكر بحزن كيف لم يقف بجانبها، عند الحاجة، سوى القليل منهم. كان بيرس صديقاً طيباً، لكنها تعلم أنه كان سيضيع مثلها في موقف كهذا. أما ماكس فلن يدع الأمور تهزمه، وبتمهل، أخذت تمزق عدة صفحات لتشعل بها النار.

ـ ماذا تفعلين؟

همس ماكس بذلك بصوت متحشرج، فتملكها الارتياح لنظرة الصحو في عينيه، وقالت وهي تشعل إحدى اللفافات:

ـ أضرم ناراً. رأيت أن أسخن شيئاً من الحساء.

ـ أليست تلك هي مفكرتك الغالية؟ ظننت أنك لا تستطيعين العيش من دونها.

كان صوته خفيضاً ضعيفاً ولكن ما زالت تتخلله لهجة ماكس اللاذعة.

أضافت كايرو مزيداً من اللفائف إلى النار وهي تمنحه ابتسامة جانبية وقالت متظاهرة بالبراءة: «هذا صحيح. أنظر مبلغ فائدتها الآن. كنت أعلم أنني سأحتاجها يوماً ما».

فرد بابتسامة واهنة: «كنت أظنك لن تحسني التصرف في الصحراء!».

بدا عليه من التحسن، ما أنعش معنوياتها. شرب نصف فنجان من الحساء، لكن سرعان ما عادت إليه الحمى الحارقة. لم تسمح كايرو لنفسها بالنوم، بل جلست بقربه طوال الليل، تعتني به بينما كان يتململ ويهذي. كان أحياناً يناديها وكأنه يبحث عنها، فتشعر بقلبها يلتوي ندماً. فتقول له ودموعها تجري على خديها: «أنا هنا، أنا هنا ولن أرحل. وعندما تشفى، سأطيعك في كل شيء، يا ماكس. أرجوك... أرجوك».

وعند بزوغ الفجر، كان الإرهاق قد حطمها تقريباً، أبقت النار مشتعلة طوال الليل. فنهضت لتعد الشاي، عندما ناداها ماكس من خلفها.

ـ كايرو؟

فاستدارت إليه. كانت ملطخة بالتراب والرماد، وحول عينيها دائرتان سوداوان كبيرتان. لكن وجهها أشرق وهي ترى الحمى تبددت. وهتفت بسرور وهي تركع بجانبه: «ماكس!».

وأخذت تتفحص وجهه. بدا منهاراً من تأثير الحمى لكن عينيه كانتا صافيتين وقد تلاشى الوهج المخيف عن وجنتيه.

ـ كيف حالك؟

ـ أنا بخير. شكراً لك. من كان يظن أنك ممرضة جيدة بهذا الشكل؟.

ـ بل كنت عديمة النفع.

قالت ذلك باكتئاب وهي تفكر في عجزها، فبدت في عينيه نظرة هزل.

ـ لو كنت كذلك لأخبرتك من دون تردد. لكنك هذه المرة لم تكوني عديمة النفع! لا أتذكر الكثير عن الليلة الماضية، ولكن كلما صحوت وجدتك إلى جانبي، تمسحين وجهي وتتحدثين معي أو تعطينني جرعة ماء.

وسكت وهو يشدّ على يدها.

ـ كنت بحاجة إلى حنانك، يا كايرو، ربما كانت الحمى ستنتهي من ذاتها على كل حال، لكنها من دونك، لكانت أسوأ بكثير.

تلاشى توترها فانهارت مستسلمة للإرهاق.

ـ ما كان كل ذلك ليحدث لولاي.

صرخت بذلك، ثم انفجرت بالبكاء قائلة: «أوّه، يا ماكس... ما أشدّ أسفي... الذنب ذنبي أنا. كم أنا آسفة».

كانت تعلم أن آخر ما يحتاج إليه هو امرأة هستيرية تغرقه ببكائها... لكنها لم تستطع منع نفسها. وأخذ ماكس يهدىء روعها.

ـ لا بأس لقد انتهى ذلك الآن. أنت مرهقة يا كايرو، ألم تنامي قط؟

فقالت باكية: «لم أستطع... خفت أن... خفت أن...».

ولم تستطع أن تكمل... لم تستطع التوقف عن البكاء.

تركها تبكي بعض الوقت، ثم أجلسها وهي تمسح عينيها بكف أصابعها كالأطفال، ثم قالت: «أنا آسفة، فأنا أتصرف بشكل سيء للغاية».

أزاح ماكس باسماً خصلة من شعرها إلى ما وراء أذنها: «لماذا لا تعدين الشاي؟ ثم تنامين بعد ذلك».

ـ لا أستطيع النوم! ماذا عنك أنت؟

ـ أنا لست ذاهباً إلى أي مكان. سأكون على ما يرام.

لكنه لم يبد على ما يرام لكايرو. كان وجهه منهكاً من الألم وجسمه أوهنته الحمى.

ـ يمكنك الاستلقاء أيضاً وبعد ذلك يمكننا أن ننام نحن الاثنين.

ـ ولكن...

فقاطعها قائلاً: «لا أريد جدالاً».

وبالرغم من ضعفه، كانت سخريته واضحة وهو يقول: «ربما كنت مهلوساً، طبعاً، لكنني سمعتك الليلة الماضية، تعدينني بأن تطيعيني، في كل شيء من الآن وصاعداً!».

فاحمر وجهها: «هذا صحيح، وسأفعل... ولكن...».

ـ ولكن لا شيء.

وبدا أن ماكس يعود إلى طبيعته: «لن تكوني ممرضة جيدة إذا منعك التعب من التفكير جيداً، وعلى كل حال، عليك أن تريحي كاحلك ذاك».

وعبس وهو يرى مقدار ورمه.

ـ ما كان لك أن تنقلي هذه الأشياء وساقك مصابة!

فقالت وهي تلمس كاحلها بحذر: «كان علي أن أفعل هذا».

لقد منعها القلق على ماكس من أن تفكر في كاحلها الليلة الماضية، لكنها عادت تشعر الآن بالألم.

ـ لم أكن أظنك بهذا الشكل، يا كايرو، كنت أظنك طفلة مدللة سرعان ما تنهار أمام الأزمات، لكنني كنت مخطئاً. قد تثيرين الغيظ معظم الوقت، إنما الليلة الماضية كنت مسروراً لوجودك.

وكان هذا مديحاً مشوباً بالغموض، لكن كايرو شعرت بوهج من الدفء في كلامه، فتملكها خجل مفاجىء.

ـ سأعدّ الشاي.

لم تستطع أن تواجه نظراته. اشتركا في فنجان الشاي بصمت. كان ماكس مغمض العينين وكأن الكلام قد أرهقه. لكنه فتحهما وهو يشرب آخر جرعة من الفنجان.

ـ تبدين فظيعة المظهر.

ـ شكراً.

ـ لم لا تنظفين وجهك؟ سيشعرك ذلك بالتحسن. يمكنك استعمال تلك المستحضرات التي أحضرتها رغماً عني.

ـ هل تستطيع احتمال النظر إليّ وأنا أفعل ذلك؟

قالت ذلك وهي تذكر كيف سخر منها عندما فعلت ذلك آخر مرة.

ـ سأستطيع.

قال ماكس هذا وقد عادت لمحة الهزل إلى عينيه.

ـ يكفي ما قاسيته من صدمات حتى تتحملي أيضاً حدوث تغضنات في وجهك.

تملك كايرو الذعر وهي تفحص بشرتها المبقعة بالدمع والغبار. فسارعت إلى استعمال المنظف، وكان ماكس محقاً فقد شعرت بالارتياح على الفور. كانت

تدهن وجهها بالكريم المرطّب، حين نظرت إلى ماكس من فوق المرآة لتخبره بذلك. وإذا بها تراه يرمقها بنظرات غريبة. ولسبب ما، شعرت بوجهها يحمر خجلاً، فأغلقت المرآة، قائلة: «هل أبدو الآن أحسن مظهراً؟».

فقال وما زالت عيناه على وجهها: «نعم. تبدين، في الواقع، أحسن من كل مرة رأيتك فيها».

أعادت الكيس إلى حقيبتها، ثم تقدمت لتستلقي على الحصيرة بجانبه: «لم أعلم كم كان مظهري سيئاً هناك في المخيم».

وضحكت وهي تتذكر، بكآبة، كم كانت هادئة نظيفة ناعمة حينذاك.

ـ كان مظهرك لا بأس به.

قال ذلك بخشونة وهو يمدّ يده المصابة ليريحها، ثم نظر إلى كايرو. كانت تبدو نحيلة وقد برزت وجنتاها العاليتان. بشرتها الجميلة قد لوحتها الشمس، ما جعل لون عينيها أكثر اخضراراً، لكن ملامحها سادها الإرهاق وأجفانها شبه مغمضة.

ـ لكنني أفضّلك بهذا الشكل.

قال هذا بهدوء.. بهدوء بالغ إلى حد لم تظن معه أنه أراد إسماعها هذا. نامت طوال النهار، وعندما استيقظت أخيراً، وجدت نفسها قريبة من ماكس، لكنها لم تبتعد على الفور. كان استلقاؤها في هذا الظل مريحاً منعشاً، وفي النهاية لم يحركها سوى الجوع.

وجدت في حقيبة ماكس علبة لحوم مجففة. وكانت النيران قد خمدت منذ وقت طويل، وهكذا سخّنت الطعام على موقد البارافين، وأكلاها معاً. بدا وكأن كل التوتر الذي كان بينهما قد تلاشى مع حمّى ماكس، واختلف شعور كايرو كلياً. استندا معاً على الصخرة خلفهما، وأخذا يتأملان النجوم وهي تظهر في السماء. سألها فجأة: «من أين أتيت بذلك الإسم الغريب؟ حتى في حفلة رأس السنة التعسة تلك، أتذكّر أنني فكرت في أن فتاة مثلك، لا يمكن أن يكون لها اسم عادي كالآخرين».

أجفلت كايرو لذكرى تلك الحفلة. فقد ذكرتها بالكثير عن تلك الفتاة

المدللة الحمقاء التي كانتها، وقالت: «ولدت في القاهرة أي «كايرو» لكنني لا أتذكرها مطلقاً. كان أبي يقول دوماً إنه كان سعيداً هناك مع أمي، بحيث أحب أن يطلقا عليّ اسم المدينة «كايرو». كان دوماً شاعرياً للغاية».

وابتسمت لذكر أبيها.

ـ شاعرياً؟ جيريمي كينغسوود؟ أنت ابنته، أليس كذلك؟

أومأت وهي تتساءل هل سمع بالفضيحة التي أحاطت باسم أبيها. لكن كلماته التالية أشارت إلى أن الأخبار لم تبلغ الصحراء بعد، فقد قال بنظرة ساخرة:

ـ لم أكن أظنّه شاعرياً. بل ظننته دوماً أحد أبرز رجال الأعمال وأكثرهم قسوة.

بقيت كايرو صامتة، أناس كثيرون كانوا يظنون ذلك عن أبيها، وأخيراً قالت: «لم يكن كذلك معي قط. ماتت أمي وأنا صغيرة جداً. وهكذا كنا دوماً معاً. اعتاد أن يدللني، كان الكثيرون يعتقدون أنه يشتري لي الهدايا، لأنه يشعر بالذنب لعدم وجوده معي طوال الوقت، لكن الأمر لم يكن هكذا على الإطلاق. وكنت أحب البقاء معه دوماً».

سكتت وهي ترى نجماً يهوي في الظلام. لم تدرك قط كم كانت مدللة، إلا بعد أن أتت إلى الصحراء وتعرفت إلى ماكس. كانت تعتبر حب أبيها لها أمراً مسلّماً به، والرفاهية التي نشأت فيها أحالتها تافهة أنانية كما قال ماكس تماماً. وتذكرت بضيق كيف تصرفت معه في البداية. لا عجب في أنها لم تعجبه، وتابعت تقول ببطء:

ـ ولكن ليست الهدايا هي التي أفسدتني، وإنما نشأتي. وأنا أظن أنني، بالنسبة إلى أبي، مميّزة ومحبوبة مهما فعلت.

وابتسمت بأسى، لأن موقف ماكس منها مختلف تماماً. ثم تابعت: «وأظنني اعتدت أن أحصل على ما أريد. فأبي لم يكن يتقدني قط. لذلك اعتدت أن أراه رجلاً كاملاً».

ـ اعتدت أن تريه؟ ألم تعودي ترينه رجلاً كاملاً؟

أخذت كايرو تفكر في ما كشفت عنه الصحف لقد عرفت حينذاك ذلك الرجل الذي لم يكن له علاقة بأبيها المحبوب، وقالت بهدوء:

ـ لا أظنه كاملاً، لكنني ما زلت أحبه، فهو أبي، ولا يمكن لشيء أن يغير هذا.

ثم نظرت إليه متحدية وهي تتوقع منه أن يسخر منها. لكن مابدا في عينيه لم يكن مقروءاً، وقال بمرارة وهو ينظر بعيداً: «أنتِ أكثر صفحاً مني. كنت أظن أمي امرأة كاملة إلى أن بلغت التاسعة. ولكنها، لم تعد أمي في نظري عندما تركتني وجوانا ورحلت. جوانا أصغر مني بأربع سنوات. ويمكنك أن تتصوري ما يحدث لطفلة في الخامسة تركتها أمها».

لم تقل كايرو شيئاً. كانت تتصور ما يمكن أن يحدث لولد في التاسعة كان يظن أمه امرأة كاملة. وبعد لحظة عاد ماكس يقول: «ولم يرغب أبونا في أي شيء يذكره بأمنا. ولهذا كان كثيراً ما يتركنا وشأننا. كنت دوماً أشعر نحو جوانا بالمسؤولية، وأظنني ما زلت أفعل. فهي دوماً ضعيفة للغاية. فقد كانت صغيرة جداً حين رحلت والدتنا، وعندما أصبحت أكبر سناً، حاولت أن تقلدها. فتركت المجتمع يجرفها، لكنها لم تستطع التعامل مع كل ذلك النفاق والخداع».

وتنهد، وانتبهت كايرو إلى وخزة الغيرة التي شعرت بها، لأنها لم تستطع إثارة مثل ذلك الاهتمام الذي بدا على وجهه، وهو يقول: «في أي وقت تسوء فيه أمور جوانا، أعود دائماً إلى لندن لأحلّ مشاكلها».

فسألته بتوتر لم تكن تنويه: «ألا تستطع حلّ مشاكلها بنفسها كما أفعل أنا؟ فهي مثلي تقريباً».

ـ ظاهرياً فقط. فهي ليست قوية مثلك.

ـ أنا لم أكن قوية إلا عندما اضطررت لذلك.

قالت كايرو هذا وهي تفكر بالسرعة التي كان عليها أن تواجه فيها الأمور عندما انهار عالم أبيها.

ـ ربما. لكنني لا أظن جوانا قادرة على مواجهة أزمة ما، كما تواجهينها

أنت. فهي دوماً عديمة الثقة بنفسها. جوانا فتاة جذابة، لكنها ضعيفة الشخصية، بينما أنت...

وسكت وقد استقرت عيناه على وجهها.

ـ أنت أكثر حيوية.

تشابكت عينا كايرو بعينيه فاهتزت وانحبس أنفاسها، ومرت لحظة صمت متوتر قبل أن يشيح بوجهه وكأنه ندم على كلماته.

ـ جوانا بحاجة إلى من يرعاها.

قال ذلك، فشعرت كايرو بخيبة أمل. كانت واثقة من أن مشاعره نحوها أصبحت أكثر دفئاً، ولكنه يبدو أكثر اهتماماً بأخته، وتابع يقول: «يفترض أن يهتم زوجها بهذا الأمر. أنا لم أحبه قط... إنه مصور إعلانات. لكن جوانا أرادت أن تتزوجه. علمت أنه لا يهتم إلا بأموالها، والآن بعد أن أنفق معظمها، قرر أن يتركها لأجل عارضة أزياء في الثامنة عشرة من عمرها. تحطم قلب جوانا، ولكن ما إن بدأت تنسى «توبي»، حتى تورطت مع شخص مثله، أي ذلك النوع الناعم المليء بالسحر الزائف والمهارة في الكذب. ليس هذا فقط، بل هي تظن أنه على علاقة بامرأة أخرى».

واستمر وقد بدا القلق عليه: «باتت رسائل جوانا مشحونة بالخطر، وإذا استمرت الحالة بهذا الشكل، سيكون عليّ العودة إلى لندن لرؤيتها».

لم تستطع كايرو أن تمنع نفسها من التفكير في أن جوانا قد تتمكن من مواجهة مشاكلها، لو لم تكن تعلم أن لديها أخ تستطيع الاعتماد عليه. بدا واضحاً أن ماكس مشغول بأخته، وشعرت بوخزة أخرى من الغيرة. وتمنت لو أنها لم تواجه هذه الأزمة الحالية بشكل جيد. فربما أحس ماكس عندها بأنها تحتاج لرجل يرعاها، هي أيضاً، وتساءلت هل سيذهب إلى لندن كما قال. وصعب عليها أن تتصوره في المدينة، يرتدي بذلة ويسير في الشوارع المزدحمة.

ولكن إذا عاد إلى لندن قد تتمكن من رؤيته مرة أخرى. تسللت هذه الفكرة إلى ذهن كايرو فأبهجتها، لكنها سرعان ما فكرت بأن ماكس قد لا يرغب في رؤيتها. ولماذا يرغب في ذلك؟ صحيح أنه أصبح أكثر رقة ودماثة،

لكن هذا لا يعني أنه غيّر رأيه فيها. فهي تمثّل كل ما يحتقره في أسلوب حياة أمه. تصرفت كطفلة مدللة منغطرسة حسب وصفه لها، فلماذا يرغب في رؤيتها بعد أن جعلت من نفسها شخصية مزعجة إلى ذلك الحد؟ إن ماكس يملك كل الأسباب التي تجعله يكرهها، وربما يتنفس بارتياح عندما يتخلص منها أخيراً... وتملكها شعور كئيب بالوحشة عندما فكرت بذلك.

***

٦ ـ امتحان الذهب

نظرت كايرو إلى ماكس من تحت أهدابها، وهي تعبث بالفنجان بين يديها. كان ينظر إلى النجوم وقد ضاقت عيناه مفكراً، وعندما أخذت تجول بنظراتها على ملامح وجهه، شعرت برجفة في أعماقها.

حدثت نفسها، بذعر، أن ذلك ليس سوى ردة فعل، فهي لا تريد أن يقول لها إنه يريد أن يراها مرة أخرى. طبعاً هي لا تريد ذلك. لا بد من أنه إحساس الممرضة نحو مريضها.

وفجأة التفت ماكس إليها فوجدها تنظر إليه، والتقت نظراتهما قبل أن تتمكن من النظر بعيداً، وشعرت وكأن قلبها يعتصر. لم تستطع أن تتحرك... لم تستطع أن تتنفس. كل ما أمكنها عمله هو أن تنظر في عينيه بعجز... متسائلة هل يرى الشوق في عينيها.

وعندما استلقت بجانبه تلك الليلة، حاولت ألا تفكر فيه، وتساءلت هل كانت مغرمة به فعلاً، وهي تقنع نفسها بأن لا شيء يجمع بينهما. فهو ينتمي إلى الصحراء، بينما تنتمي هي إلى المدينة.

وقررت أنه من غير الممكن أن تكون مغرمة به. هذا غير وارد.

ـ لن يكفينا ما لدينا من الماء لوقت طويل.

قالت كايرو لماكس هذا. في الصباح التالي، كانت نشيطة جادة عملية، مصممة على أن تكون حذرة في مدى اقترابها منه. لكنها شكّت في أنه لاحظ ذلك. كان مستلقياً على حصيرته، منهكاً متراخياً. بدا نومه قلقاً، وكانت تعلم أنه ما زال يتألم، رغم إنكاره.

www.elromancia.com

جذب نحوه زجاجة مياه فارغة عابساً، ثم هزها مقطباً جبينه، وقال: «الأفضل أن أذهب لأحضر بعض الماء. هناك جدول ماء بعد ساعتين من هنا، يمكنني إحضار الماء منه».

فقالت كايرو بذعر: «لا يمكنك السير مسافة ساعتين. أنا سأذهب».

ـ بكاحلك المصاب؟ لن تتمكني من ذلك أبداً.

وأخذ يكافح ليقف، فقالت بحدة: «أنا لا أشكو من الحمّى، وكاحلي قد تحسن فعلاً، أنظر».

وأخذت تمشي على الأرض لتريه، رغم كبتها الألم بشكل بطولي.

كان ماكس يقف مترنحاً مستنداً على الصخرة، متضايقاً من عجزه.

ـ يمكنك أن ترسم لي خريطة.

فقال وهما يتواجهان بعناد: «لا، لن أدعك تذهبين».

ياليته يعني هذا، ولم تلبث أن سيطرت على مشاعرها. إنها لا تحبه.. هذا ما قررته الليلة الماضية. مهما حدث، عليها أن تعود إلى لندن في آخر المطاف.. ولم تشأ أن تفكر بالوحشة التي ستشعر بها حينذاك.

ـ ماكس، أنت لست قوياً بما يكفي لكي تذهب. انظر إلى نفسك، إنك لا تكاد تقف على قدميك!

فقال بعناد: «أنا على ما يرام».

ـ لست على ما يرام! أنت مريض!

فقال بحدة: «لا تكوني مزعجة، يا امرأة، إذا أصريت، فسنذهب معاً».

استغرق منهما الطريق أكثر من ساعتين بكثير. وكان السير عملية شاقة بالنسبة إليهما، ولكن لم يعترف أي منهما بذلك. وبقيا سائرين إلى أن وصلا أخيراً إلى الواحة حيث جدول الماء. كانت ضفتاه مكسوتين بأزهار وردية اللون، تتألق أوراقها الخضراء الفضية في أشعة الشمس.

كان جوّ من السلام والسكينة يحيط بهذه الواحة الصغيرة، ونسيت كايرو ألم كاحلها عندما أخذت تعرج بجانب ماكس تحت صف من أشجار الصنوبر يطن حولها النحل. تشاركا في أكل برتقالة على ضفاف الماء، وشعرت بخمول

يستولي عليها. وقد فاح شذا الأزهار الخفيف مع الهواء الحار الجاف.

جلس ماكس بجانبها يستمع إلى طنين النحل. كانت خطوط التعب تحيط بفمه. بدت له الطريق أشبه بالكابوس، لكنه رفض الاستسلام، واضطرت هي لادعاء الألم في كاحلها، لتقنعه بالتوقف مراراً للراحة.

بدت مياه البحيرة خضراء غير عذبة، لكن ماكس صنع مرشحاً لها، ثم غلياها على النار قبل أن يضعاها في الزجاجات ويلقيا فيها حبوباً مطهرة. كانا، أثناء العمل، يتحدثان معاً، وقد جلسا على ضفاف البحيرة وتشاركا فنجان شاي. كانت لذة الجلوس على صخرة ملساء بجانب ماكس يتبادلان فنجان الشاي، لا تضاهيها أي لذة في العالم.

تنهدت وعيناها على أشجار الأرز والمضيق البالغ الروعة خلفها: «المكان هنا رائع، أليس كذلك؟».

فنظر إليها: «لم أتصور قط أنني سأسمعك تقولين إن الصحراء رائعة. كنت أظنك تكرهينها؟».

ـ كنت أكرهها فعلاً.

قالت ذلك وهي تعجب متى غيّرت رأيها: «أظنني تعودت عليها. ما زلت أجدها صعبة نوعاً ما، لكنها لم تعد تخيفني كما كانت قبلاً».

فقال: «ربما ستخرجين بفائدة من هذه الرحلة، رغم كل شيء. لقد اضطررت لمعرفة الكثير عن نفسك أثناء الأيام الماضية. لعل هذا ليس ما كنت تريدين أن تعودي به من النجد.. لكن معرفة النفس هي أكثر فائدة بكثير من العثور على أماكن لأغراض تجارية سخيفة».

ـ أظن ذلك.

قالت هذا باكتئاب. أعادت كلمات ماكس كل المشاكل التي كانت أبعدتها عن ذهنها. إنهم يتوقعون الآن وصول خبر منها في أي وقت. ويبدو أن ماكس قرأ أفكارها، فقال: «أنت حاولت على الأقل. وليس ذنبك إن اختار مديرك المعتوه مكاناً كهذا للتصوير».

فتنهدت: «لا! أنت على صواب في كل شيء، كانت تلك فكرة غبية».

ونظرت حولها إلى المنظر الرائع الساكن.

ـ حتى لو كان هذا ممكناً، لا أدري إن كنت أريد إحضار فرقة أزياء إلى هنا، والكل يضحك ويثرثر ويشكو.. سيفسدون جمال هذا المكان.

ونظرت إلى ماكس.

ـ لقد فهمت الآن عدم رغبتك في إحضاري معك، آسفة لأنني فرضت نفسي عليك بهذا الشكل. ولا بد أنك ظننت هذا بي.

بدا الهزل على جانبي فم ماكس.

ـ في الواقع، ظننتك أسوأ من ذلك.

ـ أسوأ؟

وتوترت شفتاها بخيبة أمل. لكنها عندما اختلست نظرة أخرى إليه، وجدته يبتسم.

ـ لقد غيّرت رأيي.

قال ذلك يطمئنها بصوت عميق دافىء للغاية، فخفق قلبها. لكنها ذكرت نفسها بضرورة الحذر.

ـ أتعني أنني «سيئة فقط»؟

ـ لا. بل أنت أحسن.

وصمت لحظة ثم أضاف برقة: «أحسن بكثير».

لم تجرؤ كايرو على النظر إليه، بل شعرت بوجهها وعنقها يتوهجان حرارةً، وتنحنحت وهي تقول متلعثمة كتلميذة:

ـ أنا... أنا... سأخبر المعلنين بأن التصوير على النجد ليس فكرة عملية.

بدا صوتها حاداً بشكل فظيع، وتنحنحت مرة أخرى.

ـ لكن ذلك سيسيء إلى أعمالنا إذا فشلت أول مهمة تتبناها، بهذا الشكل المهني.

ـ اقترحي مكاناً آخر.

قال ذلك وقد لاحظ اضطرابها من دون شك.

ـ أين؟

عاد صوتها إلى طبيعته وكانت الآن قلقة للغاية، ثم تابعت: «لا وقت لدي لأطوف في أنحاء الصحراء، بحثاً عن مكان مناسب وإنجاز الترتيبات المطلوبة».

ـ لماذا لا تعودين وتخبرينهم بالحقيقة؟ بأن الصحراء لا تناسبهم؟ بإمكانهم أن يعدوا إعلاناً في الستوديو في لندن بالتأثير الجميل نفسه.

ـ أعلم هذا. ولكن إذا قلت هذا، فلن يكلفونا بعد ذلك بأي عمل جديد، ولن يوصوا بنا لأي أحد أيضاً.

وغامت عيناها وهي تتذكر الذين يعتمدون عليها للنجاح في هذا العمل. وتصورت وجه أبيها المنهك من شدة القلق. وقالت بعزم: «علي أن أعود بشيء ما».

ـ هل هذا العمل مهم حقاً بالنسبة إليك؟

فكرت كايرو في وعدها لأبيها. فكرت في عرابتها التي دفعتها ثقتها بها إلى إقراضها المال الضروري لتبدأ به العمل، وفي بيرس الذي أقنعها بحماسته. العمل بحد ذاته لا أهمية، له لكن ما يهمها هو هؤلاء الناس. لم تشأ أن تعود إلى لندن لكي تواجه ديون أبيها. كانت تريد أن تبقى مع ماكس في هذه الواحة الهادئة من دون أن ترحل، لكنها لا تستطيع أن تخذلهم. وأجابته بهدوء: «نعم. إنه مهم».

استقرت عيناه عليها.

ـ يمكنني أن آخذك إلى مكانين عندما نعود إلى المخيم إذا شئت. يمكن أن يشكلا ستاراً خلفياً رائعاً لأي مصوّر فوتوغرافي، وبإمكانك الوصول إليهما بأية سيارة من «مينيسيت» من دون مشكلة.

فأشرق وجهها: «أحقاً بإمكانك ذلك؟».

ثم تلاشت ابتسامتها وتابعت: «لماذا تفعل ذلك لأجلي بعد كل إزعاجي لك؟».

فقال بخشونة بعد برهة:

ـ لا أجرؤ على التفكير بما سيحدث إذا صممت على أن تطوفي الصحراء وحدك. على الأقل إذا رافقتك لن أتساءل عن نوع المشاكل الذي أوقعت نفسك فيها. عليّ أيضاً أن أجمع بعض العينات من تلك المنطقة.

إبتهجت كايرو لهذه الفكرة لكنها ذكرت نفسها بسرعة بأن الرحيل أمر محتوم عاجلاً أم آجلاً. وهذا الشعور بالدفء ما هو إلا ارتياح لاحتمال العثور على مكان للتصوير. وهو شعور لا علاقة له على الإطلاق بكونها ستمضي يوماً أو يومين إضافيين مع ماكس.

ـ شكراً.

قالت هذا، ومن دون تفكير، مدت يدها تلمس يده.

ـ سأفعل كل ما تطلبه مني.

فقال ساخراً: «لن أصدق قبل أن أرى ذلك».

ولكن عندما تقابلت أعينهما، لم يستطع أي منهما مقاومة الابتسام. بدت أسنانه ناصعة البياض في وجهه الذي لوحته الشمس. كما أن عينيه كانتا أدفأ مما رأتهما قط. وعندما خفق قلبها بعنف، طالبت نفسها بالحذر، فما هي سوى ابتسامة، وماذا لو طفحت عيناه بضحك ساحر، وصعب عليها التنفس لمجرد النظر إليه؟ هذا لا يعني أنها تحبه. كل ما يعنيه هذا هو أنهما أمضيا معاً وقتاً طويلاً وحدهما.

تلاشت ابتسامته العريضة. لكن عينيه اشتبكتا بعينيها. وشعرت بالجوّ يتوتر بينهما، وبدا أن طنين النحل حولها أصبح مرتفعاً بشكل غير عادي. وشعرت بأنها لن تستطيع ضبط نفسها إذا حاول التودد إليها.

ـ أنا... أنا... ما قولك في فنجان شاي؟

فأسدل ماكس أهدابه: «فكرة جيدة».

* * *

بعد ذلك بيومين، كانا يهبطان النجد نحو الشاحنة التي كانت تنتظر ماكس

في الظل. وراحت كايرو تنظر إليها ومشاعر متضاربة تعصف بها...

فهي، من ناحية، تريد الخلاص هذا السير المرهق، ومن ناحية أخرى تريد أن يتوقف الوقت، لتبقى في النجد مع ماكس وحدهما. لكن الوصول إلى تلك الشاحنة أشبه بالعودة إلى الواقع.

وعدها ماكس بأن يريها أماكن أخرى، فتشبثت كايرو بهذا الاحتمال. على الأقل، لن تودعه عندما يبلغان سفح النجد. مضى اليومان الأخيران بصعوبة منذ تلك اللحظة عند البحيرة، فهما، تارة، يتبادلان الحديث بشكل طبيعي سهل، وتارة أخرى تلتقي نظراتهما، فيتلعثمان ويتوتر الجوّ بينهما ثم يسكتان.

وعندما تستلقي في الليل، كانت تأخذ في التساؤل عما سيحصل بينهما إذا لم تهرع لتعد الشاي. هل سيتودد ماكس إليها؟ وكيف ستكون ردة فعله إن أظهرت له تجاوباً؟

وحدثت نفسها بأنها مسرورة لأنها لم تسمح لنفسها بمعرفة ذلك. لم تستطع أن تستشفّ ما يفكر به ماكس. فهي ترفع بصرها أحياناً فتجده يحدق فيها، لكن ملامحه الجامدة لم تكن تكشف عن شيء. وكانت تتساءل أحياناً بكآبة، هل كان مرضه السبب الوحيد في ذلك التعاطف الذي حصل بينهما. لكن هذا الوضع الجديد أفضل مما كانا عليه قبل الحادث. لقد شفي كاحلها لكنه ظل يؤلمها أحياناً، وبدا هبوط النجد أصعب من تسلقه. فقد كان ثقل حملها يكاد يدفعها إلى الأمام، فتكاد تقع.

أما ماكس، فقد بدا اليوم أكثر شروداً وانطواء، وتملكها القلق من أنه ربما يعاني من تأثير السم، لكنه بدّد قلقها عندما اقترحت عليه أن يرتاحا يوماً في المخيم، قبل أن يبدأ برحلة الهبوط الطويلة، وأجابها: «ظننتك مستعجلة للعودة إلى الوطن؟».

أخذت كايرو تفكر في «هايدن دين» الذي ينتظر عودتها.

ـ هذا صحيح. ولكن هذا لا يستحق أن يتسبب في انهيارك في منتصف الطريق.

فقال بضيق: «لن أنهار. كلما أسرعنا في مغادرة هذا النجد كان أفضل».

هل هذا يعني أنه متلهف إلى التخلص منها؟ وتملكتها التعاسة لهذه الفكرة.

وجدت الحاجيات التي أمرها ماكس بتركها، خلف الصخرة تحت حجر أبيض. لم تستطع أن تصدق بأنها ظنتها ضرورية. بدت جميعها غير ذات فائدة على الإطلاق.

بعد نظرة دهشة، بدا على السائق أنه اعتبر وجود كايرو أمراً مسلماً به، وأخذ يتحدث إلى ماكس ببشاشة، والسيارة تهتز بهم فوق الأرض غير المستوية، هاتفاً، بوضوح، لدى سماعه قصة لدغة الحية. كانت تجلس بين الرجلين، فتحدق من النافذة محاولة ألا تقترب من ذراع ماكس إلى جانبها.

لم يبد ماكس، طوال الرحلة، أي اهتمام بها، كما لو كانت مجرد حقيبة ملقاة بجانبه، فجلست صامتة وقد بدا الشرود على وجهها.

عندما وصلا إلى المخيّم، نزلت كايرو من السيارة ووقفت إلى جانبها مترددة. استغربت هذه المباني والناس الذين يحيطون بها.. كل شيء بدا لها صغيراً تافهاً، بعد تلك الأخاديد المرتفعة بين الجبال على النجد.

ـ أظنك تركت امتعتك في عهدة بروس؟

قال ماكس ذلك وهو ينزل حقيبتها من الشاحنة ويضعها بجانبها على الأرض في سحابة من الغبار. فأومأت كايرو: «قال إنه بإمكاني استعمال غرفة الضيوف قدر حاجتي إليها».

فقال بكراهية: «أنا واثق من قوله ذاك. فقد سبق لك أن أمضيت ليلة هنا، ولا شك أن رؤيته لك مرة أخرى ستمنعه كثيراً. إذا أردت أن تذهبي معي لرؤية تلك الأماكن، علينا أن نبدأ رحلتنا في الساعة الخامسة من صباح غد. أنا واثق من لهفتك للعودة إلى الحضارة».

فقالت بفتور: «نعم».

كان هذا ماكس القديم العدائي. لا شيء تغيّر فيه. ما الذي جعلها تظن أن تغيراً سيحصل؟

مهما أعدت له من أكواب الشاي أثناء إصابته بالحمّى، فذلك لن يقنعه بأنها ليست تلك الفتاة السطحية التافهة المنتمية إلى المدينة، كأمه.

نظرت إلى حقيبتها، وهي تتذكر ما قاله لها عن تجارب النجد التي لا بد أن تعلمها الكثير عن نفسها.

قال إنها أحسنت التصرف وتحلت بالشجاعة، حتى أنه أظهر لها المودة في ظرف يوم أو اثنين. لكن يبدو أن العودة إلى المخيّم ذكّرته بكل ما تمثله وكل ما يكرهه للغاية.

أرادت أن تصرخ به، أن تقول له إنها تغيرت، وإنها لم تعد تلك الفتاة التي طلبت منه أن يصحبها إلى النجد. وفجأة، بدا لها من الأهمية البالغة أن تخبره بذلك.

ـ ماكس، أنا...

ابتدأت بالكلام ثم سكتت، لا تعرف كيف تشكره بشكل صحيح. فنظر إليها وقد لمعت عيناه فجأة: «نعم؟».

ـ أنا فقط..

ـ كايرو!

كان بروس قد رآهما وهو يمر بهما بسيارته، فأوقف السيارة وقفز منها.

ـ يالها من مفاجأة رائعة!

وقبل أن تجد كايرو فرصة تقول فيها ما تريد لماكس، كان يتوجه نحوهما وعلى فمه ابتسامة سرور، وهو يقول: «أنت بهجة للنظر، فتاة مثلك فقط يمكنها أن تمكث أياماً على النجد وتعود بمثل الجمال الرائع الذي ذهبت به».

كانت كايرو تعتبر بروس ظريفاً، أما الآن فبدا لها هذا المديح فارغاً سخيفاً.

ـ مرحباً يا بروس.

وابتسمت له. ومن فوق كتفه، رأت وجه ماكس وقد تغيّر لونه. من الواضح أنه ظنها استعادت طبيعتها السطحية، ماذا توقع منها أن تفعل؟ وتملكها الغضب. هل يريدها أن تعامل بروس بفظاظة؟

كان بروس يحمل حقيبتها، ملحّاً على أن ينقلها في سيارته إلى غرف الضيوف. وشعرت كايرو بالاختناق لحيويته المتدفقة. لو كان ماكس مكانه

لجعلها تحمل حقيبتها وتسير. وكان هو ينظر بوجوم كئيب إلى بروس، وما يحدثه من ضجة وانفعال. فنظرت كايرو إليه، راجية أن يقترح أن يراها فيما بعد. لكنه اكتفى بأن أومأ إليها باقتضاب وهو يقول: «سأراك غداً صباحاً. لا تتأخري».

ثم تحوّل مبتعداً بدون كلمة أخرى.

هل ذلك كل ما استطاع أن يقوله، بعد كل ما مرّ بهما معاً؟ وجُرحت كرامة كايرو وتملكها الغضب، لكن الكبرياء منعتها من إظهار ذلك. وبدلاً من ذلك، التفتت إلى بروس بابتسامة متألقة، ثم سمحت له بأن يرافقها إلى غرفتها.

تملكها الذعر عندما رأت نفسها في المرآة. لوحت وجهها الشمس، وغطاه الغبار والرمال حتى لم تعد تعرف نفسها. وكان يبدو عليها التعب والنحول كما بدا شعرها كالقش. وحدهما عيناها الخضراوان المتألقتان لم تتغيرا.

ـ تعجبيني أكثر بهذا الشكل.

تذكرت قول ماكس والأمان الذي شعرت به بقربه...

هزت رأسها تنفض عنها تلك الذكريات، مذعورة لما في عينيها أمام المرآة من شوق سافر. لن تفعل هذا بنفسها! عليها أن تفكر في مكان للتصوير، من ثم العودة إلى الوطن، وترى أباها لتخبره بأنها ابتدأت في العمل لتسديد ديونه... أي شيء عدا ماكس وطريقة سيره وطريقة التفاته والاحساس الذي ينتابها حين يكون قريباً منها.

جعلها الإستحمام تشعر بتحسن. غسلت شعرها ثلاث مرات لينظف من الرمال ويسترسل على عنقها كثيفاً حريرياً ذهبي التموجات. بقي وجهها شديد السمرة لكنه كان نظيفاً على الأقل، وتألقت عيناها بخضرتهما الصافية المتألقة.

ارتدت ثوباً حريرياً أزرق، فشعرت بالعودة إلى شخصيتها القديمة. وبدا الإعجاب واضحاً على بروس وهو يأتي ليصحبها إلى مطعم المخيم. ولكن، رغم تجاوبها لمرحه لم تستطع منع نفسها من الشعور بالوحشة لغياب ماكس وصرامته. وكانت هذه سخافة منها! إذ لم تمض ساعتان بعد على فراقهما، ومع

ذلك، يتسارع نبضها حين تفكر برؤيته مرة أخرى. ولمّا لم يكن موجوداً أصيبت بخيبة أمل عنيفة، كادت تدفعها إلى البكاء... هي التي ما بكت قط لأجل رجل... ذكّرت نفسها بذلك بغضب. لم يلاحظ بروس شيئاً غير عادي. كانت تبتسم وتتكلم بشكل آليّ، لكنها لم تذكر فيما بعد ما كان موضوع حديثهما. كل ما استطاعت التفكير فيه هو أن ماكس لم يهتم حتى بالمجيء لتناول الشراب المنعش معها.

لو دخل إلى المطعم حينذاك، لسارعت ترحبّ به ترحيب الحبيبة، لكن هذه الفكرة جعلتها تغضب، وحاولت السيطرة على نفسها. لقد أصبحت بحالة محزنة! ما الذي سيحل بها إن هي سمحت لنفسها، هي كايرو كينغسوود، أن تصل إلى هذه الدرجات لأجل عالم جيولوجيا لا يعجبه شيء؟ إنه يهتم بصخوره الغالية، أكثر مما يهتم بها هي!

لن تضيع مزيداً من الوقت في التفكير فيه، ورفعت رأسها بكبرياء. لو لم تكن تعلم بأنه أعدّ لها أحسن فرصة للعثور على مكان للتصوير في مهلة قصيرة، لأخبرته بأنها لا تريد أن تراه مرة أخرى أبداً. ولكن عليها أن تذهب لأجل بيرس وهايدن، على الأقل.

وعندما ظهر ماكس أخيراً، تظاهرت بعدم رؤيته، رغم خفقان قلبها لرؤيته في باب المطعم بشخصيته الهادئة المتحفظة. اتجهت عيناه نحوها، لكنه لم يبتسم وإنما سار بهدوء نحو الداخل حيث أحضر طعامه بنفسه، ثم سار إلى آخر القاعة ليجلس هناك. أخذت كايرو تتنفس بصعوبة. كادت تسبب لنفسها الإعاقة وهي تعرج حاملة حقيبته، مجتازة الأخدود لكي تسقيه بعض الماء، وأوشكت أن تمرض من القلق عليه، حتى إنها مزقت مفكرتها لكي تعد له الشاي، ومع ذلك لم يزعج نفسه بإلقاء التحية عليها!

وتألقت عيناها بشكل خطر، وتعمدت أن تلتفت إلى بروس وتمنحه ابتسامة متألقة جعلته يطرف بأجفانه. ثم أمضت بقية السهرة تظهر لماكس، إذا كان اهتم بأن ينظر، أية امرأة ساحرة مغرية ذكية كان يتجاهلها.

كان واضحاً أن بيروس لا يصدق حظه. وكانت هي، أحياناً، تنظر من

تحت أهدابها إلى ماكس لترى ردة فعله. ولكن، لغضبها الشديد، لم يكن يبدو عليه سوى الحزم وعدم الاهتمام. تناول طعامه، وتبادل كلمات قليلة مع الرجال الآخرين الجالسين معه على المائدة، ثم خرج تاركاً كايرو منكمشة على نفسها.

نامت تلك الليلة بشكل متقطع، غير معتادة على الفراش الليّن. كان من الصعب أن تتصور مبلغ خوفها أول ليلة نامت فيها تحت النجوم. وها هي ذي الآن في أمان بين الجدران، وأزيز مكيّف الهواء يضغط على أعصابها، تراها تفتقد ماكس أكثر مما تريد أن تعترف.

استيقظت مرهقة. وكان واضحاً أن ماكس يشعر مثلها تماماً، عندما أسرعت إليه في الصباح التالي.

لم تشأ كايرو العودة إلى ارتداء «الشورت» القذر. فارتدت ثوباً قطنياً مريحاً ذا لون وردي وأخضر. كان مزرّراً من الأمام، متسعاً حول الساقين، وهو يصلح للجلوس في السيارة طوال النهار، بعد طول الأرق والتقلّب طوال الليل. لقد استسلمت إلى النوم قبل الفجر بقليل، وتأخرت في الاستيقاظ وهي تعرف أن ذلك لن يعجب ماكس، هذا إذا كان ما يزال ينتظرها.

وجدته بانتظارها، لكن النظرة الساخرة في عينيه حدثتها بأن تخمينها كان صحيحاً. وسألها: «إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟ إلى حفلة في الهواء الطلق؟».

توترت شفتاها. كانت ترجو أن تفتن ماكس بمظهرها الأنثوي، ولكن لم يبد عليه أي افتتان. كانت قد صممت على ألا تدعه يعرف كم من الوقت أمضت في التفكير فيه. كما أن كبرياءها المجروحة جعلتها متوترة متحفزة للدفاع، فسألته: «ما المشكلة في ثوبي؟ ألسنا ذاهبين في سيارة؟».

ـ هذا صحيح. وتلك هي واقفة هناك.

وأشار برأسه إلى حيث كانت سيارة «جيب» متوقفة على مقربة، فنظرت بفزع: «ظننتنا ذاهبين في الشاحنة».

ـ الشاحنة ليست ملكي. فأنا أستأجرها في المناسبات فقط، ولبقية أعمالي أستعمل «الجيب».

فصرخت نائحة: «ولكن ليس لها سقف. سأتوسخ مرة أخرى».

ـ إنها مجرد رمال. عليك أن تتوقعي هذا في الصحراء.

قال ذلك دون تعاطف، فقالت وهي تستدير وتنوي العودة.

ـ سأعود لأرتدي الشورت.

لكن يداً قوية جذبتها من ذراعها.

ـ آه. لا. لن تعودي. تأخرت ما فيه الكفاية ولن أنتظر أكثر من ذلك.

ـ لكن ثوبي سيتلف!

ـ هذا مؤسف. إذا كنت لم تتعلمي ارتداء ملابس مناسبة عندما ذهبنا إلى النجد، فهذه مشكلتك.

والتقط متاع كايرو وألقى به في المقعد الخلفي، ثم أمر: «إصعدي».

أخذت تتصارع مع مقبض الباب متجهمة الوجه حتى فتحته بصعوبة، ونفضت الغبار عن المقعد باهتمام قبل أن تجلس عليه.

ـ لا أدري لماذا تزعج نفسك بأبواب للجيب ما دام ليس لديك سقف.

فقال وهو يتحرك بالسيارة.

ـ كفى تذمراً. أنت أردت المجيء، وليس هناك سيارة أخرى يمكن العثور عليها في هذا الوقت القصير. أنت محظوظة إذ آخذك معي ما دمت مستعجلة للعودة إلى لندن.

ـ لو كنا ذهبنا فيما بعد، هل كان بإمكاننا الحصول على سيارة فيها مكيّف هواء؟

فأجاب بلهجة غير مستحبة: «هل غيرت رأيك؟ كان الذعر يتملكك، عند البحيرة، من ألا تستطيعي العودة إلى لندن في الوقت المناسب».

فتنهدت وهي تتذكر: «بل أنا مستعجلة حقاً، إن بيرس ينتظرني و...».

فقاطعها: «بيرس؟».

فنظرت إليه باستغراب قائلة: «إنه شريكي».

فسألها بعبوس غريب: «ليس بيرس وارد ويلي كما أرجو».

ـ بل هو.

ونظرت إليه بدهشة لهذه المصادفة: «هل تعرفه؟».

وأجاب عابساً: «سمعت عنه، وهذا يعني أنني أعلم عنك كل شيء».

- عني أنا؟

فتابع يقول بتهكم بالغ: «هل أفهم من هذا أنك، وبيرس، تمضيان معظم الوقت حقاً؟».

فقالت بارتباك بالغ: «إنه شريكي، ومن الطبيعي أن نمضي معاً كثيراً من الوقت».

- لا أظنك تنزعجين إذا علمت أنه يخرج مع امرأتين في الوقت نفسه؟

- ولا أظنك تستطيع أن تخبرني عما تتحدث عنه؟

ردت عليه بصوت بارد، فقد ضجرت من هذا الأمر!

فقال وهو يغير سرعة السيارة بغضب:

- جوانا مغرمة ببيرس، أو هذا ما تظنه. رسائلها مليئة بالكلام عنه. لقد نسيت طلاقها للتو، وبيرس هذا يجعلها تعسة.

وما شأنها هي بكل هذا؟ أخذت كايرو تتساءل بغضب، ثم قالت باقتضاب:

- هذه ليست عادة بيرس.

إنه يفضل دوماً أن يشق طريقه مستعيناً بالظروف وليس بالعمل الشاق. قد يكون وقحاً أحياناً، ولكنه ليس قاسياً مطلقاً. وتابعت تقول: «إنه لا يخطط بقلب متحجر، لا أصدق أنه يؤذي أي إنسان متعمداً».

- هذا ما تقوله جوانا. من الواضح أن هناك امرأة أخرى قد غرزت فيه مخالبها. أظن أن بيرس هذا يطمع في أموالها، لكن جوانا تقول إنه يحبها هي حقاً، بينما تصمم تلك المرأة على الحصول عليه. وجوانا خائفة من أن تخسره.

سئمت كايرو الحديث عن جوانا ومشاكلها، فقالت بصراحة:

- يبدو أن أختك غارقة تماماً في الحب.

كما كانت هي الليلة الماضية، لكنها ذكرت نفسها بسرعة بأن هذا الضعف انتهى الآن.

- إذا كانت تحب بيرس إلى هذا الحد، لماذا لا تكافح لأجله؟

- جوانا ليست محاربة مثلك. يمكنها أن تكون جميلة إذا حاولت ولكن تنقصها الثقة بالنفس. لذلك لن يحالفها الحظ بالتفوق عليك.

حدقت إليه كايرو وقد صدمها ما أدركته لتوّها: «أتعتقد حقاً أن المرأة الأخرى هي أنا؟».

- يبدو هذا واضحاً. حسب قول جوانا، يمضي بيرس وقتاً طويلاً مع تلك المرأة الرائعة الجمال والمتألقة والواثقة من نفسها... كل الصفات التي تنقص جوانا وتمتلكينها أنت. ليس هذا فقط، وإنما هي تحاول توريط بيرس في مشروع مشبوه تظن جوانا أنه سيدمّره.

- جوانا لا تدري عما تتحدث عنه.

قالت كايرو هذا بعد لحظة أخذت تحدق إليه فيها، فاغرة فاها ذهولاً، لكن وجهها ما لبث أن شحب غضباً.

- قد يكون لبيرس علاقة معها، رغم أنني لم أسمعه قط يذكر اسم جوانا. ولكن من المؤكد أن ما من علاقة عاطفية تربطني به أبداً.

***

٧ ـ نسيت اسمي وعنواني

نظر ماكس إليها بارتياب: «ألا تنكرين أنك تشتركين معه في عمل؟».

فهزت رأسها بغضب:

ـ لا. ولماذا أفعل؟ ولكن إذا كنت تظنني عانيت كل تلك الصعوبات في ذلك النجد التعس لأجل مشروع (مشبوه)، عليكما، أنت وأختك الغالية، أن تغيّرا رأيكما! ولمعلوماتك، لست أنا من أغرى بيرس للقيام بهذا العمل، بل هي فكرته وليست فكرتي. ونحن مجرد شريكين في العمل بكل معنى الكلمة، يمكنك أن تخبر جوانا بهذا، أيضاً!

بقي ماكس صامتاً وعضلات فكه تتحرك بغضب، وكأنه لا يريد أن يقتنع. ثم قال بعد فترة: «يمكنني أن أفهم لماذا شعرت جوانا بأنها مهددة منك».

ـ لكنني أنا لا أفهم. حتى إنني لم أرها قط.

ـ لا بد أنها رأتك في مكان ما. تتمتعين بكل ما ينقصها من شكل، وثقة في النفس، وثروة كافية لكي تجذب بيرس. أظنه لا يملك مالاً، فهو من ذلك النوع الذي يبحث عن زوجة غنية. وهكذا لم يجد أفضل من إبنة جيريمي كينغسوود، أليس كذلك؟

أخذت كايرو تضحك. لو أنه يعلم فقط! فابنة جيريمي كينغسوود لا تملك شيئاً سوى ديون أبيها ومسؤولياتها. كما تعرف بيرس جيداً، إنها وبيرس متماثلان في اللهفة لكسب بعض المال. وأخيراً قالت وهي تتنفس بعمق:

«يمكنك أن تقول إن المال هو الذي جمعنا».

ـ يسرني أن تجدي هذا أمراً مسلياً، بينما تشعر أختي بالتعاسة، لكنني مستعد لأن أصدق بأن لا علاقة لك ببيرس إذا قلت أنت هذا.

ـ هذا شعور عظيم منك.

قالت ذلك بلهجة لاذعة وأشاحت بوجهها. إنه لا يطاق... متغطرس، عنيد، متحيّز! كيف استطاعت حتى أن تظن نفسها مغرمة به؟

أخذت تحدق من نافذة السيارة عابسة، متمنية لو أنها لم تشرع بهذه الرحلة الكريهة قط. كانا يسيران بعيداً عن النجد، حيث الصحراء مسطحة، مترامية الأطراف، سمراء اللون تحت السماء الزرقاء الملتهبة، ولم تكن كايرو مستمتعة بهذه الرحلة. فقد توقعت سفراً مرفهاً في سيارة مكيفة، وليس في هذا الدلو الصدىء الذي يهز العظام، ويمتص الغبار فيستقر بكثافة أمام المقود وعلى المقاعد، ويلتصق بجلدها وشعرها ويغطي ثوبها بطبقة سمراء.

وحدثت نفسها مرة أخرى بأنها تكرهه.

سارا حوالى ساعتين قبل أن ينحرف فجأة متوجهاً نحو مرتفع بعيد. والتزمت كايرو صمتاً ببرودة الثلج، ورفضت أن تسأله إلى أين هما ذاهبان. ولكن عندما اقتربا من المرتفع، إذا به ينبسط مشكلاً مجموعة من صخور سوداء مثيرة الشكل، قد خفق من قتامة لونها كثبان من الرمال البراقة.

خرجت كايرو من السيارة متصلبة الجسم. إنه فعلاً مكان مناسب جداً للتصوير، لكنها لم تشعر برغبة في أن ترضي غرور ماكس حين تعترف له بذلك. وبدلاً من ذلك، تجاهلته وصورت فيلماً كاملاً لزوايا المكان المختلفة، وعندما نظرت حولها، لم تر ماكس. ربما ذهب ليلقي نظرة عامة على صخوره الغالية. وجلست على صخرة في الظل، وأخذت تروّح على نفسها بدفتر ملاحظاتها. إنه فعلاً مكان مثالي.

بعد فترة، أخذت تشعر بالسأم فنظرت إلى ساعتها. لقد تأخر ماكس. ولكن اللعنة عليها إذا كانت ستبحث عنه. تتابعت الدقائق واشتدت حرارة الشمس والتهبت الصخور، وعندما لم يظهر أثر لماكس، تأكدت من أنه تعمد أن

يجعلها تنتظر.

سألته عندما عاد أخيراً مسرعاً ممسكاً بآلة غامضة للمسح: «أين كنت؟».

أجابها باختصار: «كنت أعمل. فعلى عكس ما تظنينه، لدي عمل آخر أقوم به، إلى جانب الاهتمام بك. يكفي ما قمت به نحوك من معروف بإحضارك إلى هنا».

فقالت بحدة: «لا تتكلم وكأنك شهيد الكرم. أنت عرضت عليّ إحضاري إلى هنا، إذا كنت تذكر. لو كان هذا سيؤذيك، لوجب أن تبقي فمك مقفلاً!».

ألقى ماكس بالآلة على المقعد الخلفي من «الجيب»، وقال باستياء: «هل كثير عليّ لو رجوت أن تبقي أنت فمك مقفلاً؟».

كان على كايرو أن تعود للصراع مع باب السيارة مرة أخرى قبل أن تدخل وتصفقه خلفها بحدة. فزمجر يقول: «لا تصفقي الباب!».

ـ لم لا؟ هل تخشى أن تتفكك أجزاء سيارتك؟

ـ ليس في هذا «الجيب» أي عطل.

ـ لا أبداً... فالهيكل جديد، والأبواب جديدة، والمحرّك أيضاً!

فقال وهو يصرف بأسنانه: «إنها تعمل بشكل جيد، وهذا هو المهم. طبعاً، امرأة مثلك تهتم بمظهر الشيء وليس بصلاحيته للعمل. بالنسبة الي، الأداء أهم من المظهر.. وهذا ينطبق على الناس كما السيارات».

قال ذلك وهو يدير السيارة، فأصدرت صريراً مشؤوماً تبعه صمت تام. سألته بعذوبة ساخرة:

ـ آسفة، ماذا كنت تقول عن الأداء؟

رمقها ماكس بنظرة حقد، ثم عاد يجرب المفتاح ولكن المحرك لم يعمل. أخذ يشتم بصوت خافت وهو يتحسس المقبض الذي يفتح غطاء المحرك.

ـ ماذا حدث؟

قال باختصار: «المحرك معطل».

ـ قد لا أكون أمهر عمال الميكانيك في العالم، ولكن بإمكاني إصلاح ذلك!

انتصب في جلسته وهو يسألها من خلال أسنان مطبقة: «هل تميزين أجزاء

المحرك الواحد من الآخر؟».

ـ أعرف كيف أفحص الزيت.

فقال ساخراً: «يا له من عون كبير».

فقالت بحدة: «لا حاجة بك للاستعلاء. كل ما أردته هو أن أعلم ما هو العطل، لا أريد أن أحتجز معك في الصحراء مرة أخرى!».

فقال بصوت كالثلج: «الشعور متبادل. أما بالنسبة إلى العطل، فأنا لم أعرف بعد ما هو، لأنني لا أستطيع الرؤية من خلال غطاء المحرك. حتى ولو استطعت، فلن تفهمي الشرح».

ـ وقد أفهمه. فأنا لست معتوهة كلياً!

وكان هذا كذباً منها.

ـ ولماذا تتصرفين إذن كالمعتوهين؟

سألها هذا بعد أن عجز عن تحمل استفزازها، ثم قفز من السيارة مصفقاً بابها خلفه بعنف، ودار حول مقدمة العربة.

ـ لا تصفق الباب.

صرخت بذلك خلفه كما سبق وقال لها من قبل، فحملق فيها من خلال الزجاج الأمامي، ثم رفع الغطاء، فحجب عنها الرؤية.

شبكت كايرو ذراعيها بتمرد، وهي تنظر عابسة من خلال الزجاج الأمامي المتشقق إلى غطاء المحرك.

ماالذي يجعل ماكس كريهاً بهذا الشكل؟ وسمحت كايرو لنفسها بأن تتذكر ذلك الرجل الذي سبق وعرفته في النجد. لقد عاملها بحنان عندما بكت مرة، وأخذ يقول لها ما يساعدها على تجاوز الخوف الذي كان يتملكها أثناء الليل.

تذكرت كل ابتسامة منحها لها، كل نظرة حنان أبداها تجاهها عانقها. وعبست وهي تنظر إلى غطاء المحرك. ربما أحسن التصرف أحياناً على النجد.. لكنه، منذ عودتها، عاد كريهاً سيء الطباع. حسناً، إن أراد ذلك، فسوف تتجاهله فحسب!

ظلت تتجاهل ماكس عدة دقائق، لكنه عندما لم يظهر من خلف غطاء

المحرك، غلبها الفضول ونزلت من السيارة، بعد صراع قصير مع الباب، ثم ذهبت تنظر من فوق كتفه إلى المحرك.

ـ ما الأمر؟

فنظر إليها بنفور:

ـ إذ كنت تعرفين معنى ذلك، فقد تعطل «الكاربراتير».

ـ آه.

وحاولت أن تبدو وكأنها تعرف ما هو «الكاربراتير» ثم تابعت: «وهل تستطيع إصلاحه؟».

ـ ربما. ولكن عليّ أن أنزعه أولاً.

ـ هل يمكنني أن أساعدك؟

فتنهد بضيق: «أنفع ما يمكنك القيام به هو أن تجلسي وتقفلي فمك. لا يمكنني التركيز بينما أنت منحنية فوقي بهذا الشكل».

قالت وهي تشعر بالإهانة: «كنت فقط أحاول المساعدة».

ـ حسناً، ساعديني بالابتعاد عن طريقي، والتوقف عن طرح المزيد من الأسئلة الغبية!

استدارت على عقبيها مجروحة الكرامة وعادت إلى مقعدها، فليفعل كل شيء بنفسه. إذن! وتركت الباب هذه المرة مفتوحاً لتحمي أظافرها من مزيد من التلف. كان الغضب لا يزال يغلي في داخلها وهي تحاول أن تريح نفسها قدر الإمكان، إذ يبدو أن الانتظار سيطول.

زحفت الدقائق بطيئة في الحر المزعج، لا يخترق السكون سوى دق ماكس على المحرك، وذبابة وحيدة أخذت تطن حول وجه كايرو، ما الذي تفعله هذه الذبابة هنا؟ لماذا لا تذهب وتطن حول وجه ماكس؟ وعندها، تذكرت مجلة كانت قد دستها في حقيبتها في آخر لحظة، وقد نال الحرّ والسأم منها. لم تجد وقتاً لتقرأها في الطائرة، لكنها أحضرتها الآن معها في حال احتاجت إلى عذر جيد لتتجاهل ماكس.

أخرجت المجلة من حقيبتها وهي تشعر بالانتصار. بدت المجلة لامعة

متألقة وفي غير مكانها المناسب في هذه السيارة المتسخة، رفعتها إلى أنفها تتشممها، وهي تشعر بالحنين إلى الناس والأماكن والحضارة... إلى أي شيء عدا هذه الصحراء الواسعة السمراء.

وداهمتها صورة مفاجئة للنجد، تمثلها جالسةً على ضفة البحيرة مع ماكس يشربان الشاي ويستمعان إلى طنين النحل، وتمنت لو بإمكانها البقاء هناك إلى الأبد. كانت الصورة من الوضوح، بحيث صدمتها، وكان عليها أن تنزعها من ذهنها نهائياً. حدثت نفسها بأنها مسرورة لقدومها اليوم مع ماكس. فهذه الرحلة أنهت للأبد تلك الفكرة الشاذة في انجذابها إليه، وذكّرتها بأولوياتها الأساسية، وهي دفع ديون أبيها ثم الاستقرار في المدينة، حيث انتماؤها الحقيقي. لن تعود أبداً لمنح ماكس أو الصحراء حتى ولا لحظة تفكير. وتحقيقاً لذلك، استغرقت في قراءة مجلتها إلى حد لم تنتبه إلى ماكس وهو يأتي ليقف بجانبها، يحدق فيها، حتى تكلم بسخرية بالغة: «هل أنت مرتاحة تماماً؟».

دار ينظر إليها غير مصدق وقد تلطخ وجهه بالزيت وبدت عيناه فاتحتي اللون في وجهه الداكن. فأجابت شاردة الذهن: «نعم شكراً».

كان ذهنها ما يزال مشغولاً بأزياء الشتاء، فقد اعتادت الذهاب إلى باريس وميلانو لرؤية آخر الأزياء... ثم تذكرت أين هي فوضعت المجلة على ركبتها، تسأله: «ألم تنته بعد؟».

مضت لحظة هائلة ظنت معها أن ماكس سيميل عليها ويخنقها، ولكن، بعد جهد ملحوظ، قال مطبق الأسنان: «لا، لم أنته. درجة الحرارة فوق الخمسين هنا.. وهي تحت غطاء المحرك أكثر من ذلك... وكان عليّ أن أنزع الكاربراتير من مكانه. إذا كنت تظنين أن بإمكانك القيام بالعمل بشكل أسرع، نظراً لمهارتك الميكانيكية المشهورة، فتعالي وحاولي ذلك، بينما أرى أنا كم ستطول الفساتين أو تقصر هذه السنة!».

ـ لا لزوم لأن تخنقني! فأنا واثقة من أنك تسرع في عملك قدر إمكانك.

وبإهانة متعمدة، فتحت مجلتها.

وفي اللحظة التالية، كان ينتزع المجلة من يدها بعنف، ثم يفتح الباب

ويندفع إلى الداخل. أصبح وجهه، فجأة، قريباً جداً من وجهها وقد التمعت عيناه غضباً:

ـ لقد سئمت منك ومن تصرفاتك الأنانية المدللة! أنت لا تقدّرين حسن حظك لرؤية الصحراء بهذا الشكل. آه، كلا، فأنت من ضيق التفكير، بحيث تفضلين الجلوس وقراءة مجلة مليئة بالخداع والادعاءات التي ربما تعني لك الكثير. ما دمت تحصلين على ما تريدين، فلا شيء آخر مهم، أليس كذلك؟ أولاً، جعلتني أجرّك معي صعوداً إلى النجد، فبات عملي هناك أمراً مستحيلاً. والآن، وأنا أتصبب عرقاً لأوصلك إلى موقعك الغالي، تجلسين بكل أعصاب هادئة تقرأين ذلك الهراء، وتسألينني إن كنت انتهيت.

ـ أنت الذي طلبت مني الابتعاد عن طريقك. لم أدرك أن ما كنت تريده مني حقاً هو أن أدور حولك بمنديل، أمسح به عرقك، وأخبرك كم أنت رائع، فقط لأنك تحب مكاناً كهذا! لماذا عليّ أن أعجب بالصحراء؟ إنها حارة الجوّ وغير مريحة، ومملة، وأنا عالقة فيها مع «لورنس عرب» يتحامل على لندن بشكل غريب، ويجرؤ على اتهامي بأنني محدودة التفكير!

ـ ستظلين عالقة فيها مدة أطول مما كنت تتوقعين إذا لم تلقي هذه من يدك حالاً وتساعديني.

فألقت المجلة من يدها وحملقت فيه: «قل بربك، ما الذي تريدني أن أفعل؟».

ـ أديري المحرك فقط، إن كان ذلك لا يزعجك كثيراً.

وعاد يميل فوق المحرك، فأدارت كايرو السيارة عندما أشار لها بذلك. واندفع المحرك إلى الحياة بأعجوبة وغطى ضجيجه صراخه من وراء الغطاء، فصاحت نجيب رغم الضوضاء.

ـ ماذا؟

فصاح غاضباً: «قلت لك أطفئيه».

أطفأت كايرو المحرك وأصغت إليه، فقال: «لا بأس، تعالي إلى هنا».

فتمتمت وهي تخرج من السيارة: «أمرك يا سيدي ماذا تريد الآن؟».

فناولها معدات صغيرة.

ـ أمسكي بهذه ريثما أشدّ البراغي.

فقالت بحلاوة مصطنعة تذكّره: «قل أرجوك؟».

فقال بلطف وكأنه يحدث «الكاربراتير»: «ما رأيك في أن أذهب وأتركك هنا؟».

ـ لن تجرؤ!

ـ لو كنت مكانك لما أوصلت نفسي إلى هذا الحد. أشعر في هذه اللحظة أنني أتوق إلى قتل شخص خدمة للمجتمع عامة.

بعد عدة تعديلات، صفق غطاء المحرك وأمرها باقتضاب بأن تعود إلى «الجيب» وعندما عادت السيارة تنطلق بهما، سألته: «لا أدري لماذا أصبحت كريه الطبع بهذا الشكل. لقد أخبرتك بأن لا علاقة لي بمشاكل أختك التعسة».

ـ يبدو غريباً جداً أن تعود حياة جوانا، فتنقلب رأساً على عقب بسبب امرأة جميلة جداً وقاسية وتعمل مع بيرس... ولكنها ليست أنت، كما يبدو. أخبريني كم عدد النساء الجميلات القاسيات اللاتي يعمل معهن بيرس؟

فصرخت كايرو بأسنانها غيظاً: «ليس لي علاقة غرامية مع بيرس، ولم يكن ولن يكون ذلك. إننا شريكا عمل وصديقان، وهذا كل شيء، لِمَ لا تصدق ذلك؟».

ـ لا تقولي لي إن رجلاً كهذا يمكنه أن يبعد يده عن فتاة مثلك!

فردت عليه بحدة: «ولكنك فعلت ذلك دون أية صعوبة؟».

ـ هذا لأنني...

وسكت ماكس فجأة عندما توقفت بهما السيارة، وأخذت عجلاتها تدور في الرمال دون فائدة. هنا، ضرب بقبضته على عجلة القيادة وهو يسب بطلاقة وسرعة.

فقالت تتهمه: «أنظر ماذا فعلت، لقد غرقنا في الرمال».

ـ هذا عجيب. كيف عرفت ذلك؟

وأخذ يدعك صدغيه قانطاً: «هذا كله بسببك».

فصرخت ساخطة: «بسببي؟ ولماذا؟ لست أنا من يقود السيارة».

ـ لو لم تجادليني، لما صرفت ذهني عن الطريق.

فسألته بلهجة لاذعة: «على من كنت تلقي اللوم على مشاكلك قبل أن تعرفني؟».

ـ لم يكن لدي أية مشاكل قبل أن أعرفك!

قفزا من السيارة في نفس الوقت. كانا يفرغان غضبهما على البابين، ويصرخان على بعضهما البعض كالأطفال.

ـ لا تصفق الباب!

كان هيكل الجيب غائصاً في الرمال. فركل ماكس العجلة وهو يشتم.

فقالت تغيظه: «هذا يصلح الأمر».

فرماها بنظرة إجرامية، ثم ألقى إليها بمجرفة عبر الجيب، قائلاً: «إحفري».

التقطتها كارهة، وأخذت تزيح بها الرمال بعيداً عن العجلة الأمامية من ناحيتها، إلى أن صاح بها ماكس بإشمئزاز: «قلت لك احفري، لا أن تذري حبات الرمل حولك! سنبقى هنا طوال اليوم إن إستمريت بهذا الشكل. اعملي بقوة ونشاط!».

فقالت بحدة: «آه، أقفل فمك».

لكنها ضاعفت نشاطها.

كان عملاً يقصم الظهر، وبدالها أن الرمال التي تجرفها كل مرة تعود إلى الحفرة من جوانبها. ابتل ثوب كايرو بالعرق، وكلما انحنت بالمجرفة، طارت التنورة الطويلة أمامها وأعاقتها.

قالت وهي تمسح وجهها القرمزي بباطن ذراعها: «لماذا لم تقف حالما شعرت بأن السيارة تغرق في الرمال؟».

قال مزمجراً: «كنت فعلت لولا ثرثرتك. تابعي الحفر!».

ألهبت حرارة الشمس أنفاسها دون رحمة. وأخذت هي تنغّم عملها: إنحناء، جرف، إنحناء، جرف، وهي ترنّم «أنا، أكرهه، أنا، أكرهه» وهذا

ما ساعدها على الاستمرار.

كان ماكس يعمل بكفاءة مميّزة. وانتهى من جرف ناحيته قبلها بوقت طويل، وكان بإمكانه بسهولة أن يساعدها على إنهاء جرف ناحيتها. لكنه، بدلاً من ذلك، وقف مستنداً إلى مجرفته، وأخذ ينظر إلى عرقها والسخرية على وجهه. وفضلت كايرو الموت على أن تطلب منه العون.

وعندما انتهت، كانت تتساءل هل ستشعر بالبرودة مرة أخرى في حياتها. فرش ماكس حصر الرمال أمام العجلتين الخلفيتين، ثم استدار حول الجيب لينفس العجلات قليلاً.

ثم قال لكايرو، متجاهلاً استلقاءها على الرمال المتكوّمة وهي تلهث: «يجب أن أتمكن من الخروج بالسيارة الآن، ولكنني لن أستطيع التوقف الا بعد أن أشعر بالأرض قد أصبحت صلبة. فإذا فقدت القوة الدافعة، فستغوص السيارة في الرمال مرة أخرى».

حاولت كايرو جهدها الوقوف. لا يمكنها أن تعاني ذلك مرة أخرى! وقالت: «لا بأس».

فتابع يقول: «وهكذا عليك أن تتبعي السيارة مشياً، حاملة حصر الرمال. لا يمكنني التوقف لأخذك، كما أنني لن أترك الحصر خلفي».

فقالت وهي تستند إلى المجرفة لتقف: «لماذا لا تسير أنت وأقود أنا السيارة؟».

فقال بصبر نافد: «لأنك غير معتادة على القيادة في الصحراء، وقد تغرقين السيارة في الرمال مجدداً».

فقالت بغضب: «لا يمكن أن يكون عملي أسوأ من عملك حتى الآن».

قال وهو يتحرك بالسيارة هرباً من أي احتجاج آخر: «إذا لم تتوقفي عن الشكوى، فلن انتظرك أبداً».

أزاحت كايرو شعرها عن جبينها، ثم أخذت تنظر إلى «الجيب» وهي تسير فوق حصر الرمال، ثم تنطلق بخفة في الصحراء. اعتمرت قبعتها وحملت حصيرة رمال تحت كل ذراع، ثم تبعت ماكس بجهد وتثاقل. كانت «الجيب»

تلمع في وهج الحرارة كالسراب، وبدا لها أنها مهما سارت لن تصل إليها إبداً. وأصبحت كايرو مقتنعة بأن ماكس ابتعد بالسيارة أكثر مما يلزم، لكي يجعلها تسير مسافة أطول لا غير، وهكذا عندما ألقت أخيراً بالحصر في مقعد الجيب الخلفي، كانت تتميّز غيظاً.

ـ أظنك تعمدّت الابتعاد إلى هذا الحد.

وكان هو مستنداً إلى بابها وقد بدا هادئاً مرتاحاً، فرفع حاجبه متسائلاً: «ماذا؟».

فقالت تشير إلى خلفها: «كان بإمكانك التوقف قبل نصف ميل على الأقل».

فردّ ساخراً: «لم اكن واثقاً من الرمال. ربما تحبين أنت أن تعودي إلى الحفر لإخراج «الجيب» مرة أخرى، لكنني أنا لا أرغب مطلقاً بذلك».

وأخذ ينظر إليها من أعلى إلى أسفل، من قبعتها ووجهها الأحمر، إلى ثوبها المسترخي الملوّث بالرمال، وزاد في غيظ كايرو تلك التسلية الخبيثة التي بدت في عينيه، وهو يقول:

ـ يبدو أن الحرّ أنهكك، يا كايرو. أتريدين شراباً؟

وأمسك بزجاجة الماء فاختطفتها منه بنظرة حاقدة، ولكن ما إن احتكت أصابعهما، حتى شعرت بهزة كهربائية فأوشكت الزجاجة أن تسقط من يدها، وقد شعر ماكس بذلك هو أيضاً. رأت ذلك في عينيه قبل أن يشيح بوجهه. واهتزت يدها وهي تعيد إغلاق الزجاجة.

استمرت المشاعر التي تملكتهما تسيطر عليهما والسيارة تنطلق بهما فوق الرمال.

ألقت نظرة على ماكس من تحت أهدابها. كان ينظر إلى الرمال أمامه عابساً، مقطباً جبينه وفمه متوتر بغضب، بينما انقبضت يداه على المقود بشدة ما الذي يجعله غاضباً بهذا الشكل؟

أخذت تتساءل مستاءة. فهي التي أجهدت نفسها بالسير أميالاً تحت لهيب الشمس، حاملة حصر الرمال.

بدا وكأن هدير المحرك قادم من مكان بعيد، وكان الصمت يلفهما حافلاً بالعداء والتوتر الحاد. وسرعان ما تملكها الارتياح عندما انعطف متجهاً نحو ما بدا أشبه بجدار صلب من الصخور.

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

فقال مشيراً إلى ممر بين الصخور:

ـ هنالك بحيرة، سنمضي الليل بجانب الماء.

دخلا إلى فسحة بين صخور صغيرة ملساء، قد حولتها الشمس إلى لون أبيض، فبدت أشبه بشاطىء فسيح مغطى بالحصى، تائه في الصحراء. أخذت «الجيب» تسير ببطء فوق الحصى الناعمة، إلى أن وصلت إلى بحيرة بين الصخور من العمق والصفاء ما جعلها تكاد تبدو غير حقيقية.

كان ماكس ينزل الأمتعة من «الجيب»، متجاهلاً إياها. وفكرت باستياء، أنها أحسنت حين أحضرت تلك المجلة معها. أنزلت حقيبتها وأخرجت منها حصيرة النوم، بسطتها بعيداً عن ماكس قدر إمكانها، ولم تستطع منع نفسها من القول له: «سيسرك أن تعلم بأني أحضرت معي كيس نومي هذه المرة!».

فقال بنظرة حادة: «ظننت أنك لا تملكين واحداً».

فقالت وهي تنفض الكيس وتبسطه فوق الحصيرة: «طلبت من بروس أن يعيرني كيسه».

فقال هازئاً: «يدهشني أنك لم تطلبي منه المجيء معك ليشاركك إياه».

فقالت وقد ضاقت عيناها بشكل خطر: «ماذا تعني بذلك؟».

ـ نظراً للطريقة التي كان كل منكما يظهر ولعه بالآخر الليلة الماضية، ظننتك سبق وجربت ذلك معه.

ـ أظن عليّ أن أحمد الله لأنك تنازلت ولاحظت وجودي هناك. لكنني لم أكن أظهر ولعاً به أبداً، ولا هو كان يفعل.

ـ ذلك ما بدا لي. لم أر قط عرضاً مثيراً للاشمئزاز مثل هذا.

وجذب حقيبته بعنف، ثم أخرج كيس نومه وألقاه على الحصيرة. فقالت، وهي تفرغ حقيبتها من دون وعي، لشدة غضبها: «أنت تعتبر كل من يتصرف

بطريقة لائقة مثيراً للاشمئزاز!».

ـ أتسمين ذلك تهذيباً؟ لديّ أسماء كثيرة تصف الطريقة التي كنت ترفرفين فيها أهدابك وتنظرين إلى بروس بهذا التملق والتزلف، لكن كلمة «اللياقة» ليس واحدة من تلك الأسماء! والرجل المسكين لا يعرف ماذا أصابه طبعاً، كان علي أن أعرف أنك تريدين شيئاً منه. أكل ذلك الجهد لكي تحصلي منه على كيس للنوم... أم هناك شيء آخر؟

أضاف الجملة الأخيرة بلؤم. وكانت هي قد أدارت له ظهرها عمداً، وسرعان ما استدارت لتقول: «لم يكن هناك شيء آخر، وإنما كنت أستمتع بصحبة بروس، وهذا ما لا أستطيع قوله عنك».

ـ ليس هذا ما أحسستُ به عندما كنا معاً في الصحراء قبل الآن؟

كان استفزازه لها يفوق احتمالها، فتقدمت إليه، وعيناها الخضراوان تلمعان:

ـ لن أضيع وقتي بالتصرف معك بلياقة! أنا لم أعرف قط شخصاً مثلك لا يطاق بغطرسته وعدم إحساسه، وإذا ظننت أنني سأقترب منك لحظة إلا للضرورة القصوى، يلزمك إذاً تخطيط للمخ، فأنا لا أطيقك.

ـ آه، حقاً؟

قال ساخراً وهو يمسك بها بخشونة: «الشيء الوحيد الذي يجعلني بحاجة لتخطيط المخ، هو الموافقة على أي علاقة معك».

فقالت تأمره وهو يتوجه بها نحو البحيرة: «أتركني».

وقف على طرف الصخرة وابتسم لها بقسوة:

ـ أنت طبعاً لا تطيقين أن ألمسك، أليس كذلك؟ حسناً، يمكننا الآن أن نعالج الأمر.

قال ذلك ثم ألقى بها إلى أعمق جزء من البحيرة.

كان فمها ما يزال مفتوحاً غضباً، فأخذت تتخبط في الماء محدثة رذاذاً قوياً خرق هدوء الصحراء. لم تكن المياه باردة جداً، لكن الفرق بين حرارتها وحرارة الجو كان أشبه بتأثير الغوص في بحيرة جليدية. وعندما صعدت إلى سطح

المياه، لم تتمالك نفسها من الصدمة والغضب.

ـ أنت... أنت...

وأخذت تغمغم بقنوط وغضب، غير قادرة على العثور على كلمات تناسبه! صرخت به أخيراً بطريقة صبيانية: «أنا أكرهك».

فقال من فوق الصخرة وهو يضحك بلؤم: «هذا حسن. شعورنا متبادل».

كافحت كايرو للوصول إلى الضفة، وعندما بلغت الصخرة، كانت تقف والماء يغمرها إلى صدرها، فمدت يدها لماكس ليساعدها على الخروج.

فمال إلى الأمام يمسك بها بشكل غريزي. وفجأة، لمعت عينا كايرو بالحقد، ثم جذبت ماكس بقوة أفقدته اتزانه، ووقع في الماء بجانبها.

***

هربت كايرو وهي تترنح، عندما طفا ماكس على سطح الماء، وشعره مسترسل مبتل. قال بخشونة: «لماذا. أيتها الـ!...».

ومد يده ليمسك بها لكنها تراجعت مبتعدة عن متناول يده، وهي تقول: «أنت بدأت».

اتخذ شعرها شكلاً كأذناب فئران بلون ذهبي داكن، وهي تقطر ماء حتى من أهدابها.

هز ماكس رأسه ينفض بذلك الماء عن عينيه اللتين انعكست عليهما أشعة الشمس، فبدتا أفتح لوناً في وجهه الداكن السمرة.

وقفا، ومياه بحيرة الصحراء تغمرهما إلى الخصر، وهما يحملقان في بعضهما البعض.. وفجأة، إذا بالتوتر الذي تراكم بينهما طيلة النهار يتفجر فجأة، وشيئاً فشيئاً، راح يتلاشى إلى أن تبدد تماماً، فألقيا برأسيهما إلى الخلف واستمرا يضحكان ويضحكان.

ـ أنت، من دون شك، أكثر النساء اللواتي عرفتهن إثارة للغيظ.

قال ماكس هذا وهو مازال يضحك ويلهث، وسار نحوها يجرها معه إلى تحت الماء.

كانت كايرو مستعدة هذه المرة. خلّفت فيها أول تشعريرة البرودة

والانتعاش، وأطبقت فمها وعينيها وهي تغوص، حتى إذا ما خرجا إلى سطح المياه وهما يبعدان شعريهما عن أعينهما، كانا ما زالا يضحكان كممتوهين. كانا يقفان معاً متقاربين، يبتسم واحدهما للآخر عندما، ولسبب غير مفهوم، تغير الجوّ بينهما فجأة. تلاشت ابتساماتهما ببطء عندما اشتبكت نظراتهما ثم سادت لحظة صمت طويلة.

نظرت في عيني ماكس، وإذا بالتعبير الذي رأته فيهما، يجعل قلبها يخفق بشكل مؤلم. تلاشت المناظر من حولهما حتى لم يبق سواهما في تلك البحيرة الصحراوية المنعشة. وتوقف الزمن تماماً، وراحت تنظر في عينيه بعينين تضاعفت خضرتهما لشعور لم يعد يمكنها تجاهله.

لم تعرف قط كم وقفا هناك، قبل أن يقول:

ـ لا أدري ما هذا التأثير الذي تتركينه.. كيف تفعلين بي هذا؟

فارتجفت تجاوباً: «أفعل ماذا؟».

ـ أحياناً أشعر بأنني أريد أن أقتلك، وأحياناً...

ـ نعم؟

همست بذلك بصوت أجش. لكنها عرفت الجواب.

أخذ ماكس يجرها نحو ضفة ضحلة حيث الحصى يكوّن شاطئاً ضيقاً اهتزت صفحة المياه وهما يتقدمان بجهد، وحالما وصلا إلى اليابسة، عاد ماكس ينظر إلى كايرو بحنان وحب.

للحظة واحدة شعرت كايرو بأن ما يحصل يهدد بالخروج عن السيطرة، وراحت ترتجف وكأنها في صحراء جليدية...

قال لها بصوت أجش وهو ينظر إلى النبض العنيف أسفل عنقها: «ما بك؟ تبدين متوترة...».

همست بما يشبه التوسل هذه المرة: «لا أدري...».

ـ كايرو.

تمتم ماكس باسمها فارتعشت لتلك النبرة في صوته: «نعم».

عاد يقول لها كايرو ثم توقف وكأنه عاجز عن التعبير.

كانت الشمس تغرب بسرعة وقد ألقى الشفق على بشرتها لوناً أحمر ذهبياً. فقال لها: «أنت جميلة حقاً. ليتك تعرفين كيف يسحرني وجودك معي وقربك مني».

كانت تشعر بالعاطفة تلهب مشاعرها وتزيدها خوفاً إلى حد لم تقو على تحمله... ترددت كايرو، ولأنه كان يشعر بذلك ابتعد عنها وتمدد على الحصيرة وأغمض عينيه من دون أن ينطق بكلمة حتى ظنت كايرو أنه غفا. فراحت تنظركايرو حولها. فوق الأفق كانت السماء مخططة بلون أحمر ناري، والصخور التي كانت بيضاء أخذت الآن تتوهج في شفق الغروب.

كان ماكس ما زال مستلقياً هناك وهي واقفة تتأمله، ثم رأته ينهض ويقف قربها سائلاً إياها بهدوء: «هل أنت بخير؟».

وأزاح خصلة شعر عن جبينها، فأومأت برأسها: «نعم أنا بخير».

وابتسمت له فبادلها الابتسام.

لم تره قط يبتسم بهذا الشكل، بهذا الدفء في عينيه وهذا النور في وجهه، وانقبض قلبها وهي تدرك ما يعني لها.

أحبك... أرادت أن تقول له ذلك. لكنها، لسبب ما، ترددت... لا تريد أن تفسد هذه اللحظة بالشكوك والتوقعات. يكفي الآن أنه موجود معها ويبتسم لها بحنان.

ـ أسف، فقد كنت متوحشاً معك هذا النهار.

قال ذلك جاداً فردّت:

ـ تصرفت كطفل عنيد. لكنني واثقة من أنني كنت أستحق ذلك!

فضحك: «هذا صحيح».

ـ هيا بنا، نسبح مرة أخرى.

ـ لن أعود إلى الناحية الضحلة هذه المرة.

قالت ذلك وهما يعودان إلى البحيرة، ثم صرخت عندما رأته يريد القاءها إلى الجهة العميقة منها.

قالت مهدّدة: «إياك!».

فقال ضاحكاً: «قولي لي هذا بلهجة رقيقة».

قالت برقة: «أرجوك ألا تفعل».

التفت إليها مبتسماً ووجهه يخبر قصة السعادة التي يشعر بها.

ـ كان عليك أن تسأليني بهذا الشكل من قبل.

ـ لم أكن أظن أن ذلك يؤثر فيك. أحسست أن مزاجك السيء قد يدفعك إلى أن تلقي بي حتى في المياه المتجمدة.

ـ بينما كنت أنت من العذوبة والنعومة بحيث تقومين بأي شيء أطلبه، كما أظن.

فضحكت وأمسكت بيده وهما ينزلان إلى البحيرة: «كنت مشاكسة فقط لأنك كنت تشاكسني».

ـ وأنا كنت مشاكساً لأنك كنت تثيرين غيظي.

كان الماء بارداً منعشاً وعبست كايرو وغاصت حتى عنقها، ولكن عندما مرت الصدمة الأولى، أخذت تشعر بالانتعاش الخالص. وسبحت بنشاط إلى الناحية الأخرى من البحيرة لتدفىء نفسها، ثم عادت إلى ماكس، ترفع شعرها عن عينيها وابتسامتها تتألق في ضوء النهار الآفل، وسألته: «هل كنت حقاً أثير غيظك؟».

قال: «نعم».

ثم ضحك لما بدا على وجهها من استياء. ودامت الإبتسامة ودامت، حتى نزلا في الماء، ثم صعدا إلى سطح الماء وهما يلهثان ويضحكان.

أشعلا بعد ذلك ناراً من غصون شجر السنط، ثم سخنا لحماً مطبوخاً بالبهارات كان ماكس قد أحضره معه.

أخذت كايرو تحرك اللحم، وهي تفيض بسعادة عميقة.. أحبك، لماذا لم تقل هذه الكلمة؟ لأنها كلما تساءلت عن حب ماكس، كان الشك يتملكها. فهو لم يقل لها إنه يحبها. إنها تعلم بأنه يرغب فيها، لكن الرغبة ليست حباً. فماكس رجل انعزالي، ومن غير المحتمل أن يغيّر طراز حياته لأجل امرأة مهما بلغت رغبته فيها. وإذا كان لا يريد التغيير، فلن يسعها وعوداً زائفة كذلك. لم

تكن كايرو تريد أن تقرأ التوجس في عينيه عندما يدرك أنه يعني لها أكثر مما تصور. إنها تريده، نعم، وأكثر مما كانت تظن.

كيف وقعت في هذا الغرام اليائس بماكس؟ إنه لا يناسبها على الإطلاق... لكن هذا لم يغير الواقع. إنه الرجل الوحيد الذي يمكن أن تحبه بهذا الشكل... إنها تعرف ذلك في أعماقها، وتذكرت كايرو كيف كانت تقرأ تلك المجلة عندما كان ماكس يصلح «الجيب»، وكيف أقنعت نفسها بأنها مشتاقة للذهاب إلى الوطن. لكن، كيف سيكون الوطن من دون ماكس؟

تناولا الطعام بينما أخذت النجوم تظهر بالملايين، محتشدة في السماء العميقة الزرقة، إلى أن دار رأسها من كثرة النظر إليها. كان المكان هادئاً للغاية، فلا أصوات بعيدة لسيارات أو أناس. وحده صوت تنفس ماكس الهادىء كان مسموعاً. وتصدع صخرة أحياناً مع تدني درجة الحرارة.

لن تستطيع أن تحتمل المدينة بعد هذا! وتملك كايرو الذعر لهذه الفكرة. لا يمكنها أن تهجر كل شيء لتبقى هنا مع ماكس، حتى ولو ظنت أن هذا ما يريده. ثم عليها أن تفكر بوالدها!

لم تشأ كايرو أن تتصور ردة فعل ماكس عندما يعلم حقيقة أبيها. فهي تعرف رأيه بالفساد والمفسدين، وتعرف أنه سيشعر بالاشمئزاز إذا عرف السبب الحقيقي الذي يدفعها إلى إكمال هذه المهمة. لقد فعل أبوها كل شيء لأجلها، وهي لا تريد أن تتخلى عنه الآن، ولا حتى لأجل ماكس.

التفت تنظر إليه. كان وجهه في ضوء القمر أشبه بصورة محفورة، وهو يتطلع إلى الفضاء مستغرقاً في أفكاره. كل خط في وجهه كان مألوفاً إلى حد الألم وانقبض قلبها.

وكأنما أحس باضطرابها، فسارع يقول: «أراك هادئة جداً، في ماذا تفكرين؟».

ترددت لحظة قصيرة، متسائلة هل تخبره رغم كل شيء، لكن الليل كان رائعاً، ولهذا ستفكر في المستقبل غداً. أما الليلة، فالحاضر يكفي.

وهكذا، بدلاً من أن تفتح قلبها، قالت له: «ليس بي شيء.. الجو يجعلني هادئة».

منظر خلفي لإعلان في مجلة، ينظر إليه القارىء لحظة ثم ينساه على الفور.

وجرّ كايرو يوقفها: «سنبقى هنا اليوم، ويمكنك أن ترسلي إليهم «تلكس» من المخيم غداً تخبريهم فيه بأنك لم تعثري على مكان مناسب».

ـ لا أستطيع يا ماكس. هناك أناس يعتمدون عليّ.

قالت ذلك بيأس.

ـ مثل بيرس، مثلاً.

ـ نعم، بيرس واحد منهم.

قالت ذلك محاولة البقاء هادئة عقلانية.

سألها بمرارة وهو يثني كمي قميصه: «ما قصة ذلك الرجل الذي تخدع به النساء؟».

فقالت مصرة على أسنانها: «أنا لم أنخدع به، وكفّ عن لومي أو لوم بيرس على مشاكل أختك. لا أدري ما هو الوضع بينهما، لكن بيرس كان دوماً صديقاً لي، صديقاً فقط وليس عاشقاً، بيرس هو الذي منحني فرصةً للعمل عندما رفض الآخرون ذلك».

ـ وبيرس هو الذي أرسلك إلى الصحراء من دون استعداد منك على الإطلاق، ولو كان لديه ذرة من الإحساس لجاء بنفسه. إنه يستغلك يا كايرو، كما يبدو أنه يستغل كل امرأة يتعرف إليها.

فقالت وقد فقدت أعصابها: «ما الذي تريد أن تعرفه عن هذا الأمر؟ إنك حتى لا تعرف بيرس. أما أنا فأعرفه... وحتى ولو كان يستغلني، وهذا غير صحيح، قلت إنني سأنجز هذه المهمة، ولست مستعدة للتراجع عن كلمتي».

فقال غاضباً محتاراً: «لا أصدق أن مهمتك الشهيرة هذه تهمك أكثر مما بيننا!».

ـ هذا غير صحيح.

ـ برهني إذن عن ذلك ببقائك يوماً آخر. برهني بعدم إحضار فريق التصوير إلى هنا.

فصفقت بيديها على عينيها: «لا أستطيع يا ماكس».

تكورت كايرو في كيس نومها ثم ألقت عليه تحية المساء، وعندما تأكدت من نومه همست (أحبك).

استيقظت على ورقة خضراء تمرر على وجنتها الرقيقة، فأخذت تتمطى كهرّة. كانت الشمس ما تزال مختنقة خلف المنحدرات الصخرية إلى الشرق، لكن الجوّ كان يتألق بأشعة الفجر اللؤلؤية.

ـ ظننتك لن تستيقظي أبداً.

قال ذلك متظاهراً بالتذمر. منحته كايرو ابتسامة ناعسة، ثم قالت: «إنني مستيقظة الآن».

ـ الوقت متأخر علينا أن ننهض.

ـ أحقاً؟

ـ نعم

وفيما هما في الجانب الضحل من البحيرة بعد جولة سباحة، قال لها: «لنبق هنا يوماً آخر».

كانت كايرو تشعر بانتعاش بالغ في الماء، ولم تكن مستعدة لاقتراحه هذا.

ـ ابقي هنا يوماً آخر.

لم يقل لها لا ترحلي، لكن دعوته هذه كانت كدعوة إلى الجنة. يوم آخر مع ماكس.. ليس هذا مطلباً كبيراً، لكنها تأخرت كثيراً عن منهاج العمل المقرر. لا شك في أن بيرس وهايدن دين يتوقعان عودتها غداً.

قالت بكآبة وقد تبدد الحلم: «أنا مضطرة للعودة».

ـ لماذا؟ هل سئمت؟

فجلست وهي تشعر بالوحشة للتغير الذي علا وجهه.

ـ لا، لا يا ماكس، ليس الأمر كذلك. وأنت تعلم هذا. إنما عليّ أن أنهي هذه المهمة.

ـ إنسَ أمر هذه المهمة.

قال ذلك وهو ينهض واقفاً.

ـ من المؤكد أنك رأيت من الصحراء ما يكفي لتدركي أنها ليست مجرد

ـ لمَ لا؟

لن يفهم مشاعر الذنب والوفاء والمحبة التي تربطها بأبيها، ولن يقدّر فضل بيرس عليها وهو يقدم إليها فرصةً بعد شهور من رفض الآخرين لها.

ـ لا... لا أستطيع الشرح.

ـ لا حاجة بك للشرح. يمكنني استنتاج ذلك بنفسي. فأنت مستعجلة للعودة إلى ما يسمونه الحضارة. أليس كذلك؟ حيث يمكنك التبرج يومياً، وقضاء يومك مفتشة في المفكرة عن مواعيد الحفلات الليلة، والقيام بأحاديث تافهة مع أناس تافهين، فتخبريهم بكل شيء عن تلك المغامرة الممتعة التي قضيتها في الصحراء.. وسيضحكهم هذا كثيراً!

فصرخت بمرارة: «آه، ما فائدة الجدال معك؟ لن تستمع إلي على كل حال. إنك من العناد والتحيّز المسبق، بحيث لا ترى سوى وجهة نظرك!».

وسارت إلى حقيبتها وأخذت تدس حاجياتها فيها.

ـ إن تصوراتك الخاطئة هذه ناتجة عن عقدة من سلوك أمك. وليس ذنبي إن هي هجرتك! إنك تظن أن كل النساء مثلها.. ولكن هذا غير صحيح. أنا لست مثلها! أنت صاحب المشكلة. وقد يدهشك أن تعلم أن المدن مليئة بأناس لطفاء مهذبين استطاعوا العيش من دون أن يعزلوا أنفسهم في الصحراء.

فقال وقد اشتد شحوبه، وهو يلقي حقيبته في «الجيب»: «حسناً، إذهبي إذن إلى حيث كل تلك الروعة».

انطلقا إلى المخيّم مباشرة يسودهما صمت مرّ. كان بجانبها متجهم الوجه، وكانت هي مجروحة غاضبة لا تلين. فهو غير منطقي على الإطلاق!

هل توقع منها حقاً أن تترك كل شيء لتمضي معه يوماً واحداً فقط؟ لم يطلب منها البقاء مدةً أطول، فهو لا يهتم بها إلى ذلك الحد.

وشعرت بقلبها وكأنه يتصدع ثم يتحطم إلى ألف قطعة، لكنها لن تبكي.. وأخذت عيناها تؤلمانها.

لشدّ ما تحبه! والشوق إليه يحرق كيانها، وهي تضطر للجلوس ويداها متقبضتان في حجرها، وتحاول أن تقنع نفسها بأن هذا لن يؤثر في شيء كما

برهن سلوك ماكس. فهو سيقرنها في ذهنه دوماً بالحياة التي عاشتها أمه، وقضاء يوم آخر معه لن يُحدث أي فرق.

نظرت من خلال زجاج السيارة الأمامي المصدع، وعيناها الخضراوان يملؤهما الندم، وقلبها يهمس.. يوماً آخر.

ما الذي يمكن أن يتغير في يوم واحد؟!

حتى إن كلمة الوداع ستكون أكثر صعوبة.

وعندما دخلا إلى باحة المخيم، تكلم ماكس لأول مرة. أوقف الجيب خارج جناح الضيوف، لكنه لم يطفىء المحرك، ثم قال بصوت جامد: «خذي حقيبتك عن المقعد الخلفي لأنني سأتابع طريقي».

ـ إلى أين ستذهب؟

فقال باللهجة نفسها: «إلى مكان لا يهمك».

أخرجت حقيبتها من «الجيب» ووضعتها على الأرض.

ـ أظنك ذاهباً لتبادل الحديث مع بعض صخورك الغالية.

لم تستطع منع نفسها من هذا القول الساخر، ما أخرجه عن طوره: «إن صحبتها أفضل من صحبتك».

وصفقت الباب بعنف: «هنيئاً لك بها إذن، فأنا ذاهبة إلى العالم الحقيقي!».

ـ هنيئاً لكما ببعضكما.

قال هذا ساخراً وهو ينطلق بالجيب، وعجلاته تصر عالياً تاركاً كايرو وهي تلوم الرمال المتناثرة على الدموع التي سالت من عينيها.

* * *

٨ ـ أتغارين؟

تملك بيرس السرور عندما رأى صور كايرو، وقال بحماسة وهو ينشرها على مكتبه:

ـ هذا هو مطلبهم بالضبط. لون هذه الصخور إزاء لون الرمال يشكل منظراً خلفياً بديعاً للصور.

فكرت كايرو بماكس وانقبض قلبها. لقد قال لها مرة إن الصحراء ليست مجرد منظر خلفي، لكن بيرس لن يفهم هذا أبداً.

أخذت تحدق في الصور. بدت في غير مكانها على هذا المكتب الذي تدب فيه الفوضى. فرأت الصخرة التي جلست عليها، تنتظر بروز ماكس من البحيرة، وراحت تتصوره بوضوح، وكأنه يخرج فعلاً من الصورة. فأغمضت عينيها وهي تشعر بألم فجائي، ليتها تنسى! لكن كل تفاصيل اليوم الذي التقطت فيه هذه الصور، محفورة في ذاكرتها.

ابتعدت كايرو عن المكتب فجأة، وهي تسأله: «أتظن هايدن دين سيعترض لأن المنظر ليس من النجد؟».

ـ لا، ما دمنا نقدم الصور التي يريدها. يبدو أنك عثرت على مكان غريب رائع.. ولا بد أن تؤثر فيهم كفاءتك في القيام بكل الترتيبات اللازمة مسبقاً.

وجمع بيرس الصور وهو يضيف:

ـ لقد قمت بالمهمة بشكل جيد جداً يا كايرو، قلت لك إنها مهمة سهلة.

أخذت كايرو تفكر في الساعات الطويلة التي تسلقت فيها النجد، وفي وجه ماكس الأغبر وهو يمسك بيده التي لدغتها الحية، وفي قلبها المتألم.. لكنها لم تقل شيئاً، لم يكن هناك ما يُقال، وقال بيرس لها باهتمام:

ـ لا يبدو عليك النشاط كعادتك. هل أنت بخير؟

ـ بألف خير. لكني متعبة قليلاً، فقط.

وتكلفت ابتسامة مشرقة. لم تستطع أن تتذكر الكثير عن الأيام الأخيرة التي أمضتها في مينيسيت. كانت تتحرك كالآلة، تزور المكاتب، وتواجه الروتين الحكومي الذي لا ينتهي. ثم تحجز غرفاً في الفندق، وترتب أمر استئجار سيارتين مع سائقيها لنقل فريق التصوير إلى المكان المنشود. أكثر من مرة لمحت صورتها في المرآة وهي تومىء وتبتسم وتشق طريقها بين المكاتب مستخدمة فتنتها، فعجبت كيف تبدو طبيعية بينما قلبها يتحطم. ذات يوم، قال بيرس بارتياح:

ـ هل تستطيعين مقابلة هايدن دين عصر هذا اليوم؟ فقد تملكهم السأم من انتظارك. من حسن الحظ أنك لم تغيبي أكثر من هذا.

ـ من حسن الحظ.

رددت كايرو كلامه بوحشة، وهي تزيح جانباً ذكرى ذلك الصباح في البحيرة، عندما طلب منها ماكس البقاء ليوم آخر. سارت نحو النافذة، ووقفت تنظر إلى الشارع. كانت الأرصفة محتشدة بالناس، يحملون مظلاتهم تحت أمطار الربيع، كما كانت حركة السير متوقفة خلف الضوء الأحمر بفروغ صبر. كان هذا وطنها قبل أن تسافر إلى الصحراء، لكنها الآن تشتاق إلى السماء الواسعة وآفاق الصحراء الخالية، ويؤلمها شوقها هذا.

عادت تلتفت إلى بيرس، قائلة: «بيرس، هل تعرف فتاة تدعى جوانا؟».

فأشرق وجهه: «جوانا هادينغتون؟ هل تعرفينها؟».

ـ ليس تماماً، تعرفت إلى أخيها في الصحراء.

فقال متجهماً: «لا بد أنه ماكس المشهور، إن جوانا مشغوفة به، ولكن يبدو أنني لا أوافقها الرأي. فهمت أنه رباها منذ انفصال والديهما، وهي تلجأ

إليه وتستشيره، ولا أعرف السبب. ويظهر أنه بالغ الثراء، لكنه اختار ترك كل شيء هنا ليذهب للعمل في الصحراء، إنه يأتي أحياناً ليرى جوانا فقط، إنه شخص غريب الأطوار».

فقالت بضيق، وهي تتصوره أمامها واقفاً في الشمس ناظراً إلى الأفق:

ـ ليس غريب الأطوار. بل هو أكثر الرجال الذين عرفتهم تعقلاً.

لكن بيرس لم يقتنع: «ليت جوانا لا تتأثر به إلى هذا الحد، فهو لا ينفعها كثيراً في وجوده في الصحراء، أما أنا فدائماً قربها لأرعاها».

ـ هذه ليس طبيعتك، يا بيرس. لم أسمعك تذكر جوانا من قبل! كنت أظنك من الرجال الذين لا يثبتون على حب واحد.

فأشرق وجهه الوسيم بحماسة صبيانية: «لم أعد كذلك. كنا نحاول أن نبقي الأمر سراً، لكنني لو استطعت، لتزوجت جوانا غداً. لم أعرف امرأة مثلها قط. إنها بالغة العذوبة والرقة، وهي تختلف عن كل الفتيات اللاتي عرفتهن قبلها. كنّ كلهن مثلك، يستطعن رعاية أنفسهن، لكن جوانا ليست بهذا الشكل. إنها من الفتيات اللاتي يحتجن إلى حماية».

لم تستطع كايرو منع نفسها من التفكير في أن جوانا فتاة محظوظة. وتمنت لو أنها، هي أيضاً، تثير في الرجال غريزة الحماية، فقد تعبت من رعاية نفسها. وسألته:

ـ ما دمت تحبها، لِمَ لا تتزوجان؟

ـ لقد عانت جوانا السنة الماضية محنة طلاق فظيعة، ولهذا ما زالت ضعيفة. لا أريد استعجالها في شيء. سيعتقد الجميع أنني تزوجتها لأجل أموالها، كما فعل زوجها الأول المتوحش، وهذا أحد الأسباب التي جعلتني متلهفاً إلى النجاح في هذا العمل. أريد أن أثبت لجوانا أن بإمكانها أن تثق بي، وأنني لست رجلاً فاشلاً لا يمكنه تحصيل المال.

قال ذلك وهو يضرب راحته بقبضته، ثم تابع: «إذا وافق هايدن دين على إنجازك هذا، عصر هذا اليوم، نكون حصلنا على ما نريد. لم أخبر جوانا الكثير عن شراكتنا بعد. أردت أن انتظر حتى أتأكد من النجاح».

تملكت المرارة كايرو وهي تفكر في أنه قد أخبر جوانا عنها ما يكفي لإثارة شكوكها. وربما تبعت بيرس يوماً فرأته يلاقيها، وربما يدخل المكتب معها، فاستنتجت كل ذلك. لماذا لم تسأل جوانا بيرس عن الأمر قبل أن تكتب إلى ماكس عن شكوكها؟ وتملك كايرو السخط.

كان التوتر يتملك كايرو فيما هما ينتظران اثنين من الشركاء في شركة هايدن دين عصر ذلك النهار، لكنهما، كما توقع بيرس، أعجبا جداً بالصور. وسرعان ما اقتنعا بأن النجد لم يكن مكاناً مناسباً رغم كل شيء. حتى إنهما تأثرا لتفاصيل الترتيبات التي اتخذتها كايرو، وطلبا منها العودة مع المجموعة للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

ـ نريد التحرك بسرعة. يريد عملاؤنا استغلال وجود العارضة «جاسمين» لبضعة أيام. هل يمكنك تأكيد الحجز؟.

أومأت كايرو، لكن قلبها هبط عندما علمت أن عليها أن تتصرف مع إحدى أهم عارضات الأزياء في لندن، وهي معروفة بصعوبة معشرها. وتملك كايرو الفزع حين فكرت بردة فعلها إزاء ظروف الإقامة في الصحراء.

عندما غادرا، كان بيرس يبتسم بابتهاج لقرب تقاضي الأجر عن عملهما أخيراً، فضلاً عن أن الشريكين ألمحا إلى مهمات أخرى في الطريق. وكان بيرس يتفجر حماسة وهو يقول لكايرو:

ـ لقد نجحنا. لا أكاد أصبر حتى أخبر جوانا. شكراً لك، فقد نجحنا في أول مهمة لنا. لا شيء سيقف في طريقنا الآن، يا كايرو، إنتظري فقط وسترين، فقد انتهت مشاكلنا!

ربما مشاكله هو فقط، كما أخذت تفكر بمرارة، أما مشاكلها هي فقد ابتدأت لتوّها. عليها أن تتعود العيش من دون ماكس.

في طريق عودتها إلى لندن، حدثت نفسها بأنها عندما تعود إلى نظام حياتها العادي في البيت، سيكون من السهل عليها أن تنسى ماكس. لكن الأمر لم يثبت العكس فقط، بل أظهر مقدار شوقها إليه. اشتاقت إلى خطواته الواسعة البطيئة، والطريقة التي يرتدي بها قبعته.. اشتاقت إلى لهجته اللاذعة والسخط

في عينيه عندما تغضبه.. اشتاقت إلى جوّ الثقة بالنفس الذي يضفي عليها الأمان... وأكثر من كل شيء، اشتاقت إلى ابتسامته حين ينظر إليها بحنان.

حاولت كايرو أن تبدو متحمسة لنجاح عملها عندما ذهبت لزيارة أبيها. كان أجر أول مهمة يمكنها من تسديد القرض الذي تلقته من عرابتها، وبعد ذلك يسدد ما بقي من ديونه. وأنذرته بقولها كي لا تجعله يأمل كثيراً.

ـ ذلك سيأخذ بعض الوقت. ولكن، إذا سارت الأمور كما يتوقع بيرس، ستتمكن من تسديد جزء كبير هذا العام.

نظر جيريمي كينغسوود إلى ابنته. كانت تبدو مرهقة، ووجهها العاري من الزينة قد لوّحته شمس الصحراء. لكنها بدت أجمل من قبل. وعبس وهو يرى ظلاً من الحزن في عينيها الكبيرتين الخضراوين. وقال بهدوء:

ـ تبدين متعبة. لم تكن هذه السنة سهلة عليك اليس كذلك؟

ومال إلى الامام يمسك بيدها يعتصرها.

ـ آسف، يا حبيبتي، لم أكن أريدك قط أن تقلقي بهذا الشكل، أرجو أن تتخلي عن فكرة تسديد الديون هذه. لم يبق الكثير، وسأتمكن من تدبير أموري بشكل ما.

فوضعت يدها الطليقة على يده: «لقد رعيتني يا أبي طوال تلك السنين، وقد حان دوري الآن».

رأت ملامح وجهه ترتجف لفيض من المشاعر، فابتسمت له محاولة تحويل الحديث إلى موضوع أكثر مرحاً.

ـ أنا محظوظة لحصولي على هذا العمل الممتع. لا يمكن لأي شخص أن يحصل على عمل يتضمن رحلة إلى الصحراء.

سألها: «ماذا تشبه الصحراء؟».

أخذت كايرو تفكر في روعة النجد وضيائه الباهر، في كثبان الرمال المستديرة وشفق الغروب وظلاله، في البحيرة حيث النحل يطن حول الأشجار، وشعرت بأنها لن تستطيع أبداً أن تصف منظر الصحراء.

ـ إنها شديدة الحرارة، حارة وخالية ومليئة بالرمال والصخور.

وبدا الفزع على أبيها: «مسكينة كايروا أنت تحبين المدينة ولا بد أنك كرهت الصحراء».

فاجتاحت الذكريات العينين الخضراوين:

ـ لا. لم أكرهها.

قالت ذلك، ثم تملكها الذعر وهي ترى صوتها يتهدج وهي تتابع: «بل أحببتها جداً».

لم تستطع كايرو أن تتصور ذلك العدد من الناس الذين اجتمعوا لالتقاط بعض الصور البسيطة. لا بد أنهم سيحتاجون سيارة إضافية، أدركت ذلك عندما أرسل إليها هايدن دين قائمة بأسماء المستخدمين، وتمنت أن تجد المزيد من الغرف في الفندق عندما يصلون إلى هناك.

كانت متلهفة لرؤية الصحراء مرة أخرى، لكنها خائفة من أن يشاركها الآخرون ذكرياتها. قابلت المجموعة في المطار قبل الرحلة، فازداد هبوط قلبها. كانوا، بالضبط، من النوع الذي يحتقره ماكس، فهم مندفعون متكلفون، يخلطون أحاديثهم بكلمة «حبيبي» ومعانٍ وإشارات متطرفة.

لفتت «جاسمين»، عارضة الأزياء، أنظار الجميع. كانت طويلة ذات جمال أسمر غريب، لقد عرفتها على الفور فقد سبق ورأتها في عدة حفلات، لكنها فوجئت بهذه الكراهية التي شعرت بها نحوها عندما قابلتها أخيراً.

كانت جاسمين سريعة الاستياء سيئة الطباع، وكان هايدن دين يعلم جيداً ما يكلفه غضبها. ولهذا كان يحرص على استرضائها بأي ثمن. وهكذا عندما لم تخف جاسمين احتقارها المتبادل لكايرو، كان على هذه الأخيرة أن تحفظ لسانها وتصرف أسنانها وتتذكر ديون أبيها.

خفق قلبها عندما حطت الطائرة بهم في «مينيسيت». لقد عادت إلى البلد الذي يعيش فيه ماكس. كانت تعلم أن فرصة رؤيته شبه منعدمة، ومع ذلك أخذت عيناها تذرعان الشوارع بحثاً عن «طيف» مألوف، بينما قافلة من سيارات الأجرة تحمل المجموعة إلى المدينة. ما الذي ستفعله إذا رأته؟ ماذا بإمكانها أن تقول؟

عندما قادت المجموعة إلى داخل الفندق، حاولت أن تتجاهل هتافات الذعر أمام مشهد الأثاث الرث، وجاسمين تندفع قائلة بغضب:

ـ أنا اعتدت على النزول في فنادق بخمسة نجوم. ووكيلي لم يخبرني قط أن عليّ أن أتحمّل الصراصير في غرف النوم! كما أنه لا يوجد حمام في غرفتي!

عندما حضرت كايرو إلى مينيسيت لأول مرة، تصرفت مثلها تماماً. كان ذلك قبل أن تتعرف إلى ماكس.. قبل أن تتعلم أن هناك أموراً أكثر أهمية عليها أن تهتم بها. وقالت محاولة الاحتفاظ بصوت هادىء:

ـ يوجد «دوش» في آخر كل ممرّ. إنني آسفة إذا كان هذا غير ما اعتدت عليه، ولكن هذا أفضل فندق في مينسيت كما أن اقامتكم لن تطول فيه أكثر من يومين.

عندما هدأت من روع الجميع. ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها، وهي تشعر بالخلاص، ثم سارت نحو النافذة تفتحها.

لفّ المدينة سكون غير عادي عندما أخذ ضوء النهار يتلاشى بسرعة. أخذت كايرو تتأمل شخصاً يرتدي جبة زرقاء يخرج من أحد الأبواب، حانياً رأسه ليتفادى اصطدام عمامته الضخمة بعتبة الباب العليا، ثم يسير بخطى واسعة نحو السوق، فذكرتها مشيته بماكس. كان ألم الشوق من الحدة بحيث جعلها تجفل وترفع يدها إلى قلبها وكأنها تخفف عنه، إلى متى عليها أن تعيش مع أشواقها هذه؟

عمت الفوضى في الصباح التالي عندما وصلت السيارات. بدا على الفور أن السيارتين اللتين كانت كايرو أمرت بهما لا يمكن أن تتسعا لهم جميعاً. وقف الفريق والكل يتذمر بينما بادرت كايرو إلى حديث متعب مع السائقين، لترى هل بإمكانها الحصول على سيارة ثالثة. كانت تجاهد لتفهم لغتهما الفرنسية المهشمة، وبعد فترة تنهدت جاسمين بشكل متكلف، ثم قالت بلهجة جارحة: «يبدو أن هذا سيستغرق الصباح بطوله. كنت أظن أن كل هذه الترتيبات تقررت مسبقاً».

فقالت كايرو مطبقة الأسنان: «هذه الترتيبات أنجزت قبل أن يُضاف أربعة

أشخاص إلى المجموعة الأصلية».

فقالت جاسمين وهي تهز كتفيها:

ـ لو كنت تعرفين أي شيء عن العمل، لأدركت أن الأعداد قد تتغير.. ليس في نيتي التسكع حتى تحلّي هذه المشكلة، سأذهب لأتمشى.

ثم انطلقت بخطوات واسعة، مستمتعة بلفت نظر المارة إلى جمالها المثير. عضّت كايرو على شفتيها، وعدت حتى العشرة قبل أن تعود إلى السائقين وتتمكن من الحصول على سيارة ثالثة. وعندما عادت جاسمين كانت كايرو تدير لها ظهرها فلم ترها، حتى انتبهت إلى نظرت الإعجاب السافرة في أعين السائقين فالتفتت.

كان ماكس واقفاً وجاسمين متعلقة بذراعه.

شعرت كايرو وكأنها تلقت ضربة على رأسها. بدا وكأن قلبها توقف عن الخفقان، بينما أخذت تلهث وهي تضم إلى صدرها دفتر الملاحظات.

لم يكن يبدو عليه أي تغير. الملامح الهادئة المتحفظة نفسها وجو القوة الذي يحيط به نفسه. لم تستطع كايرو أن ترفع عينيها عنه. وأخذت تغلي في داخلها مشاعر متضاربة. ذهول، وفرح لا يصدّق، وأشياء محرقة حين بدا عليه كأنه لم يعرفها.

بدا كأن جاسمين تتكلم من مسافة بعيدة، لكن الاعتداد بالنفس الذي بدا على وجهها لم يكن خافياً وهي تقول لكايرو باستعلاء:

ـ لا بأس، يا حبيبتي. كفى ارتباكاً لإحضار سيارة أخرى. فقد وجدت فارساً شهماً سينقذنا من ورطتنا.

ورفعت بصرها إلى ماكس.

ـ قابلت ماكس هنا في السوق وأخبرته عن المصيبة التي حلّت بنا، وقد تكرّم بأن ينقلنا بسيارته.

ونظرت حولها وهي تنتظر، كما يبدو، سيلاً من عبارات الشكر والإعتراف بالجميل. وبجهد خارق، تمالكت كايرو نفسها:

ـ لا حاجة لذلك، في الواقع...

بدأت تتكلم بصوت متكلف مرتفع، فقاطعها ماكس بنعومة.

ـ ما من إزعاج أبداً.

وابتسم متعمداً لجاسمين، ثم عاد ينظر إلى كايرو.

ـ ذلك يسرني.

تألقت عينا كايرو إجراماً، كيف يجرؤ؟ كيف يجرؤ على الوقوف أمامها والتزلف إلى جاسمين بهذا الشكل؟ لم تره من قبل بهذه الحماقة. أمعنت النظر إليه والغيرة تقبض قلبها بشدة، بينما ضاقت عينا جاسمين بارتياب، وهي تنظر إلى هذا التعبير الواضح على وجهها.

ـ ماذا تعنين بقولك؟ لا أريد أن أستقل السيارة مع الآخرين. ما دمت لا تستطيعين القيام بترتيب مناسب، فليس أمامنا سوى قبول عرضه الكريم.

كانت كايرو قد سيطرت على نفسها الآن، فقالت بجمود:

ـ لقد رتبت لتوي أمر إحضار سيارة ثالثة. لا نريد أن نزعج السيد فالكونر.

فقال ماكس:

ـ دعيني أوصلك بسيارتي على كل حال يا جاسمين، إن هذا سيمنح الآخرين مكاناً أوسع، ويمنحني أنا سرور صحبتك.

ونظر إلى كايرو قائلاً:

ـ أنا أعرف الطريق.

اشتدت أصابع كايرو على دفتر ملاحظاتها، بينما قالت جاسمين مهنئة نفسها على هذا النصر السهل.

ـ هذا جميل. لنترك هذا المكان البائس ونذهب لتتناول فنجان قهوة ريثما تنهي كايرو كل شيء. فحتى الآن لم يُنجز شيء إطلاقاً.

توجهت بماكس إلى داخل الفندق، تاركة كايرو تهتز غضباً وإحباطاً وغيرة. ماكس، من بين كل الناس، يفتنه مثل هذا التبرج الصارخ؟

لم تستطع تحمل رؤية ماكس وهو يهذي ويسيل لعابه أمام جاسمين، فرفضت أن تلتحق بالآخرين إلى الداخل حيث البرودة، بل أصرت على الإنتظار

في الخارج في الجوّ الحار حتى تصل السيارة الثالثة. وعندما وصلت هذه أخيراً، استجمعت شجاعتها للدخول إلى الفندق ثم قالت بابتسامة ضعيفة:

ـ أظن أننا مستعدون للانطلاق.

فقالت جاسمين ببطء: «إذهبوا جميعاً، يا أحبائي. سنذهب نحن حالما نتمكن من ذلك. لقد قرر ماكس أن سيارة الجيب لا تناسبني، ولهذا سيستعير سيارة مكيّفة».

وقالت كايرو من بين أسنانها: «كم هذا مؤثر».

بينما قال ماكس برزانة: «لا أتحمل رؤية جاسمين مغطاة بالغبار».

فحملقت فيه. لا بأس بأن يغطيها هي الغبار ويلهبها الحرّ في سيارته الجيب المهترئة تلك! وقالت لجاسمين:

ـ أرجو أن تكوني ماهرة في الحفر. إن لديه عادة سيئة وهي قيادة السيارة في الرمال الناعمة.

ابتسمت جاسمين راضية عن نفسها وهي تنظر إلى ماكس بطريقة جعلت العرق البارد ينضح من كايرو.

ـ يبدو ماكس من الرجال الذين يمكنهم مواجهة الأمور بأنفسهم.

فأجاب ماكس بلذة وعيناه تلتقيان بعينين كايرو الغاضبتين.

ـ لن أطلب أبداً من جاسمين أن تلمس المجرفة. لا تقلقي على نجمتك فسأرعاها جيداً.

ـ حسناً، لا تتأخرا. فأموال طائلة تصرف على التصوير هذا النهار. ولن نتمكن من القيام بشيء حتى تصل جاسمين إلى هناك.

لم تعد تستطيع النظر إليهما معاً فاستدارت على عقبيها وخرجت.

وفي الواقع، كان عليهم أن ينتظروا أربعين دقيقة قبل أن يصل ماكس وجاسمين أخيراً إلى المكان، بعد أن تملك القلق الجميع لطول الانتظار. وحال وصولها، أخذوها بسرعة لتستعدّ للتصوير في خيمة.

تملكها غضب بالغ، حين رأت ماكس قد أزعج نفسه باستعارة سيارة «رانج روفر» جديدة تماماً لكي يحضر بها جاسمين بفخامة وأبّهة، أحست بتعاسة

لا حدود لها، فذهبت إلى صخرة في الظل وجلست عليها عاقدة الذراعين حولها وكأنها تشعر ببرد. ووجدها ماكس هناك بينما كانت جاسمين تقف للتصوير عند كثبان الرمل وبين الصخور.

ـ أرجو أن تكوني مسرورة لهذه المهزلة التي أقمتها. أظنك تفضلين منظر الصحراء بهؤلاء الناس.

ـ ليس بمقدار سرورك. إذ يبدو أن جاسمين قد أحرزت نصراً باهراً! أشعر حقاً بالدهشة وأنا أراك مولعاً بهذا النوع من النساء!

نظر إليها. ومع أنه لم يبتسم، فقد شعرت، والغيظ يملؤها، بأنه يتسلى.

ـ لا، إنها ليست من النوع الذي يعجبني على الإطلاق.

ـ واضح!

وحملقت إلى حيث كانت جاسمين تتمشى جيئة وذهاباً أمام الكاميرا.

ـ لم يطل بها الوقت حتى طرحتك أرضاً مهزوماً ذليلاً، أليس كذلك؟ بعد كل كلامك الذي قلته عن النساء، إذا بك تقع في شباك امرأة مثل جاسمين. إنك بحماقة كل أولئك الذين تحتقرهم وتتعالى عليهم. لو لم يكن الأمر محزناً، لضحكت عليك.

قال متهكماً: «ومن قال إنني وقعت صريع غرام جاسمين؟».

فقالت وهي تقلّد صوت جاسمين الأجش البطيء.

ـ وجدت فارساً شهماً. قرر ماكس أن سيارته «الجيب» لا تليق بي. كدت تلتهمها بنظراتك.

تعمّد ماكس أن يفكر قليلاً قبل أن يقول:

ـ هذا غير صحيح.

ـ ربما. ولكن بالنسبة إلى شخص عرف بحبه لمصاحبة الصخور، كنت منجذباً إليها تماماً.

ـ إنها فتاة جميلة جداً.

قال ذلك وكأن هذا يفسر كل شيء، فالتهبت عينا كايرو غضباً.

ـ هذا إذا كنت تحب مظاهر الغرور المفرط والطبع المتوحش.

أزاح ماكس قبعته إلى الخلف ونظر إليها مفكراً.

ـ لا أظنك تغارين، يا كايرو. أليس كذلك؟

ـ أغار؟

وقفزت متكلفة ضحكة ساخرة: «هنيئاً لكما ببعضكما البعض».

ـ هل أنت من النوع الذي لا يرحم ولا يدع رحمة الله تنزل؟

ـ جاسمين لا تهتم لك. إنها تهتم فقط بنفسها. إنها من النساء اللاتي يهمهن دوماً أن يجدن رجلاً يعتمدن عليه.. ولا يهم من يكون. تشبثت بك لأنك تسهّل أمورها، ثم عندما رأت أنني...

وسكتت مذعورة، لقد أوشكت على القول: «أنني أحبك».

كانت مقتنعة بأن هذا صحيح. فقد قرأت جاسمين الحقيقة على وجهها. ولأنها جاسمين، فقد قررت أن تضع عصاً في عجلتها.

ـ رأت أنك ماذا؟

فردت بسرعة: «رأت أنني أعرفك. لا تكن مغروراً بنفسك، فما أنت سوى تذكار رحلة بالنسبة إلى جاسمين، ومع ذلك، لا تريدك أن تنظر إلى امرأة أخرى ما دامت هي موجودة».

ونظرت إلى جاسمين التي كانت توجه نحوهما نظرات كطعنات خنجر.

ـ من الأفضل الآن أن تهرع إليها لاهثاً وتجثو عند قدميها. فهي تريدك حيث يمكنها مراقبتك، ولا أريد أن أكون مسؤولة عن إفساد مثل هذه العلاقة الرائعة.

ثم نهضت كايرو، مزهوة بسيطرتها على نفسها، وسارت متجهة إلى الخيم. لكنها لم تستطع مقاومة النظر إلى الخلف لترى أين ماكس، فلم تر له أثراً قرب جاسمين، التي كانت تسوّي شعرها وتبدو في مزاج سيء.

بدا الجميع مرهقين تحت وطأة الحرّ، وقد بقي ثوب واحد فقط للعرض. وكانت كايرو تتسكع متململة حول الخيم، حتى تملكها الضجر، فهربت إلى الصخور تاركة كل شيء خلفها، ستنتظر ظهور ماكس، وبعد ذلك يصبحان وحدهما هنا.

كانت كايرو مستغرقة في أحلامها عندما سمعت حركة شخص خلف الصخور فقادتها خطواتها إليها من دون تفكير. كان ماكس جاثماً عند جدار صخري، وهو يخط شيئاً في دفتر ملاحظات. لم تستطع أن ترى وجهه لأن رأسه كان منحنياً تحت قبعته. لكنها أطالت النظر إليه، مستمتعة بذكرى أيامهما في الصحراء.

نظر ماكس إليها فجأة، وكأن الذكرى ساورته هو أيضاً، فبدا الإجفال في عينيه بشكل غير عادي ثم حدّق إليها بحدة. وما إن التقت أعينهما حتى اشتعل بينهما شيء ما.

ـ كايرو؟

وتقدم ماكس خطوة نحوها، فأخذ قلبها يخفق برجاء عنيف سرعان ما تلاشى عندما اخترق هذا الجوّ المتوتر صوت جاسمين: «كنت أبحث عنكما في كل مكان! ألم تسمعاني؟».

جعل الشك صوتها الأجش حاداً: «لا».

ـ لا بد أنك صماء وعديمة الكفاءة أيضاً.

وأشارت جاسمين برأسها نحو مكان التصوير وتابعت: «انتهينا الآن فاذهبي ورتبي خروجنا من بؤرة جهنم هذه في أسرع ممكن. أنت هنا لتؤدي عملاً، لا لتتسكعي في الأنحاء. وإذا شئت أن تحصلي على أجر، فالأفضل أن تعملي بشكل أفضل. فوكر البراغيت الذي حجزت لنا الغرف فيه هو أسوأ فندق أقمت فيه في حياتي. كما ضيعنا الكثير من الوقت هذا الصباح، لأنك لم تحجزي ما يكفي من السيارات».

ونظرت بإغراء إلى ماكس الذي حرص على إبقاء ملامحه جامدة، وقالت: «لولا ماكس، لاضطررت إلى حشر نفسي مع الآخرين».

ـ ما كان ذلك سيقتلك.

قالت كايرو هذا بشدة، فتصلبت ملامح جاسمين.

ـ أملك نفوذاً كبيراً عند شركة هايدن دين، فإذا لم تحاذري، سأخبرهم بأنك تعاملت معي بشراسة ولم تتعاوني كما يفترض بك.. وإذا أنا اعترضت

فلن يحصل مكتبك الاستشاري على أي عمل بعد ذلك، وأنا أعلم أنك، أنت خاصة، من بين كل الناس، لا تستطيعين البقاء من دون عمل.

وسكتت بشكل ينطوي على الكثير من المعاني وهي تبتسم بقسوة.

ـ لو كنت مكانك لبذلت جهدي للمحافظة على عملي، يا كايرو، ذلك أنه من الصعب أن تجدي من يثق بك، فيما اسمك هو «كينغسوود».

استدارت كايرو على عقبيها وابتعدت. كانت ترتجف. من الواضح أن جاسمين تعلم كل شيء عن والدها، وسيسرّها أن تدع ماكس يعلم هو أيضاً. وأخذ قلب كايرو يغلي تعاسةً وثورة.

وتمكنت أخيراً، من إعادة الجميع إلى مينيسيت. أرهقتهم حرارة الجو، فراحوا يتذمرون طوال الوقت من مكان الإقامة بينما قبضت كايرو يديها، وهي تحاول ألا تفكر في ما كان ماكس وجاسمين يفعلانه في السيارة وحدهما. وقال المصوّر عابساً، عاكساً أفكارها:

ـ ربما لن نشاهد جاسمين قبل الصباح. فإذا فاتتها الطائرة، سيكون عليك أن تحضريها معك، يا كايرو.

قررت كايرو أن تتبع المجموعة وحدها عند العصر، ليتسنى لها دفع حساب كل من ساعدها، وشكر كل شخص ساهم في إنجاح مهمتها. وكانت تتطلع بشوق إلى السفر بمفردها، فهي لا تحتمل فكرة الجلوس إلى جانب جاسمين.

شعرت بقلبها وكأنه استحال حجراً ثقيلاً بارداً في صدرها، لكن وزنه خف قليلاً عندما وقفت سيارة الرانج روفر أمام الفندق. كانت كايرو واقفة تتحدث إلى المدير في الردهة المعتمة فرأت جاسمين تخرج من السيارة ثم تستدير إلى نافذة ماكس. حولت نظراتها وهي لا تريد أن تشاهد مشهد الوداع. على الأقل لن تمضي جاسمين الليلة معه.

بدت جاسمين، في الواقع، على شيء من الضعف وسرعة الإنفعال وهي تدخل إلى الردهة، وضاقت عيناها وهي ترى كايرو: «أخبرت ماكس عن فضيحة أبيك، فارتاع تماماً. استغربت عدم سماعه بذلك، مع أن الصحف

كتبت عن الأمر حينذاك».

ـ هذا صحيح.

قالت كايرو ذلك بصوت خفيض.

ـ أظنه دهش لأنك لم تخبريه. لا يمكن، في الواقع، إخفاء فضيحة كهذه أليس كذلك، يا كايرو؟

فقالت كايرو بهدوء:

ـ طبعاً، بوجود أناس مثلك.

هزت جاسمين شعرها الطويل الرائع.

ـ لا أدري ماذا كنت سأفعل لولاه، اليوم. قلت له إنني واثقة من رغبتك في أن تشكريه غداً، لكنه قال إنه مضطر الآن للذهاب إلى مكان ما، ولهذا لا داعي لانتظاره.

ـ أنا واثقة من أنك شكرته أكثر من اللازم.

قالت كايرو ذلك بهدوء، ثم عادت متعمدة إلى المدير تحدثه.

لم تشأ أن تجعل جاسمين تشمت بها، لا سيما إن رأت كم سببت لها من الألم. كانت رسالة ماكس واضحة. إنه لا يريد رؤيتها مرة أخرى.

***

٩ ـ ليوم أم للأبد؟

استلقت كايرو على الفراش، وأخذت تحدق في السقف. عندما تفجرت الفضيحة حول أبيها في البداية، شعرت بالصدمة، ولكنها لم تشعر بمثل هذه التعاسة. قررت أن تكافح لأجل أبيها وتدرس الوضع معه. كانت بالغة التعاسة عندما غادرت مينسيت في المرة الأخيرة، أيضاً. لكنها، على الأقل كانت تعلم أنها عائدة. وساعدها على الاستمرار ذلك الأمل الخفي في أن ترى ماكس مرة أخرى. ولكن، حتى هذا الأمل تبدّد الآن.

سترتاح حين تسافر المجموعة على الطائرة في الصباح. كان جمال جاسمين المتجهم يذكرها دوماً بآخر مرة رأت فيها ماكس، ومجرد رؤيتها كانت تمزق قلبها غيرةً مرة. وإذ تذكرت تعليقات جاسمين على عملها في المستقبل، حرصت على التمسك بالبشاشة والكفاءة، وهي تنهي الإجراءات الرسمية في المطار. لكن هذا العمل تركها مرهقة للغاية وفكرت بكآبة أن عليها أن تعتاد ذلك. فسوف تمضي الحياة كلها من دون ماكس.

وعندما عادت إلى مينسيت، دفعت أجر السائقين، وأضافت بقشيشاً سخياً استحقوه، لصبرهم على تعليقات الفريق وتأفّفه من الحرارة والصحراء، وكرهت التفكير في أنها كانت هي أيضاً بهذا الشكل.

في صباح اليوم التالي، شكرت كل شخص في الفندق. وأخيراً حملت حقيبتها إلى وسط السوق حيث سيارات الأجرة تنتظر في ظل الأشجار.

اعتادت رؤية مجموعةً منها على الدوام، وقد استند سائقوها عليها يدخنون

ويتحدثون أو ينامون على المقاعد الأمامية. وعصر ذلك اليوم، لم تجد سوى سيارتين في الظل، وقد جلس سائقاها معاً يدخنان وينظران إلى كايرو، وهي تقترب منهما.

وضعت حقيبتها على الأرض وانحنت تتكلم من خلال النافذة. ولكن عندما سألت بالفرنسية إن كانا يأخذانها إلى المطار، هز الاثنان رأسيهما نفياً. فظنت أنهما لم يفهما، وسألتهما مرة أخرى. وعندما أصرّا على موقفهما، رفعت ذراعيها إلى السماء ومضت تحدث ما يشبه ضجيج طائرة لإيضاح طلبها.

ـ يبدو أنك تواجهين صعوبة.

ارتفع صوت ماكس من خلفها، فاستدارت إليه وما زالت ذراعاها مرفوعتين. كان يلبس قبعته وقميصه الكاكي، وقد بدت التسلية واضحة في عينيه وهو ينظر إليها.

أخذت تحدق إليه لحظة بعينين واسعتين، إلى أن لاحظت ازدياد التسلية في عينيه. فأدركت، فجأة، أن ذراعيها ما زالتا مرفوعتين. فأنزلتهما بسرعة وهي تجاهد للسيطرة على خفقات قلبها. وقالت بخشونة: «ظننتك رحلت».

فلم يبد عليه الإهتمام وهو يسألها: «أحقاً ظننت ذلك؟».

ـ أنت تعلم أن هذا صحيح. لا تقلق، فقد أبلغتني جاسمين برسالتك بوضوح تام. كنت راحلاً ولا تريدني أن أزعجك.

ورفعت رأسها بكبرياء، ثم تابعت: «وهذا لا يعني، أنني سأحاول العثور عليك!».

فسألها وما زالت عيناه تلمعان بشكل يثير الغيظ: «هل قالت لك جاسمين إنني حملتها هذه الرسالة لك؟».

وتساءلت كايرو بمرارة عمّا يضحكه في ذلك، وأجابت: «لا، لكن ذلك كان واضحاً بشكل مؤلم».

ـ فهمت.

لم يحاول ماكس حتى الإنكار، بل نظر إلى حقيبتها.

ـ يبدو كأنك راحلة.

ـ أحاول ذلك.

قالت هذا بنظرة حقد إلى السائقين وواصلت: «طيارتي تقلع بعد ساعة ونصف وعليّ أن أذهب إلى المطار، ولكن يبدو أنهما لا يريدان أن يفهما».

ـ أتريدينني أن أحدثهما لأجلك؟

سألها ربما ليتأكد من عدم وجود عائق يمنعها من الرحيل.

لم تسمح لها كرامتها بالإعتراف بمبلغ ألمها لموقفه هذا، حتى ولا لنفسها. يكفيها عذاباً أن يقف قربها! وبعد لهفتها لرؤيته، أصبحت الآن متلهفة للرحيل، خوفاً من الاستسلام والارتماء عند قدميه.

ـ شكراً.

قالت له هذا بجفاء، فأخذ يتحدث إلى الرجلين بلغتهما، وتخلل ذلك كثير من الضحك، وأخيراً التفت إليها: «هذا السائق لا يستطيع الذهاب لأنه ينتظر ابن عمه وذاك يريد أن يتناول الطعام بعد نصف ساعة، فإذا ذهب إلى المطار ستتأخر عودته».

ـ عظيم.

ودفعت شعرها خلف أذنيها وتنهدت.

ـ كيف سأذهب إلى المطار الآن؟

ـ سأوصلك إذا شئت. فأنا ذاهب في ذلك الاتجاه.

ـ شكراً، ولكنك أزعجت نفسك كثيراً لأجل شركة هايدن دين أمس. ساجد من يوصلني.

قالت ذلك رافضة بكبرياء.

شكت في أنه يضحك منها، وكان هذا أكثر مما يطاق، واستدارت مبتعدة بسرعة كي لا يلاحظ ألمها. فقلبه لم يتحطم لاحتمال عدم رؤيتها مرة أخرى. وسارت تجتاز بكبرياء الشارع الفسيح المظلل. لم يبق لها سوى الكبرياء! سارت في أنحاء السوق، والشوارع المجاورة جيئة وذهاباً، لكن سيارات الأجرة اختفت كلها بشكل غامض... ستفوتها الطائرة...

وقف الرانج روفر بجانبها، وقال ماكس وهو يفتح بها الباب: «من

الأفضل أن تصعدي».

عضت شفتها، وأخذت تنظر إلى ناحيتي الشارع بأمل ظهور سيارة أجرة، لكنها لم ترى سوى حمار يحرك أذنيه في الظل.

لم يكن لديها أي خيار، فصعدت إلى السيارة كارهة، ثم جلست متصلبة الجسم. بدا وكأن ماكس مصمم على زيادة الأمور صعوبة، والسخرية والتسلية في عينيه. فشبكت يديها في حجرها. كل ما تريده الآن هو أن تذهب إلى الوطن، أن تنهي، بأي شكل، هذه الرحلة معه. عندها، تنتهي القصة.. عندها تستطيع أن تبكي بحرقة.

كان جو السيارة المكيّف لذيذاً ببرودته، والمقاعد مترفة للغاية بالمقارنة مع تلك السيارة المهترئة التي أخذها فيها ماكس. وسألته بعد لحظة صمت.

ـ ماذا حدث لسيارتك الجيب؟

وكانت تأمل ألا يرتجف صوتها باكياً، فأجاب: «الجيب بخير».

ـ لماذا عدت تستعير هذه إذن؟ هل أذاقتك جاسمين طعم الرفاهية؟

ـ ليست مستعارة. إنها سيارتي.

ـ سيارتك؟

والتفتت تحدّق فيه وقد نسيت دموعها في ثورة الغضب، ثم قالت بحذر: «هل تعني أنك خرجت بي في تلك السيارة المحطمة العتيقة وجعلت الرمال تغطيني، بينما كان بإمكاننا استعمال هذه؟».

ـ هذا صحيح مع الأسف.

وبدت التسلية في ملامحه أكثر وضوحاً.

ـ بينما هي تناسب جاسمين!

ومنع الغضب كايرو من أن تتذكر قرارها بإخفاء ألمها.

ـ جاسمين ليست مثلك كما ترين.

قال ذلك وكأن هذا يفسّر كل شيء، فأجابت بحدة: «هل يفترض أن أتشرف بأنني أستقل السيارة نفسها التي أقلّت جاسمين؟ أم فعلت ذلك للتأكد سريعاً من رحيلي؟! لكن لهفتي لا تضاهي لهفتك أنت للرحيل».

والتفت إليها: «هل تريدين الرحيل حقاً؟».

توتر ذقن كايرو والتمعت عيناها: «لا يمكنني الانتظار!».

ـ هذا مؤسف.

قال ماكس هذا بدون أسف، ثم انحرف بالسيارة عن الطريق.

ـ يؤسفني أن عليك الانتظار!

ـ ماذا تفعل؟

صرخت بذلك متشبثة بمقعدها عندما اهتزت السيارة فوق مرتفعات من الرمال، وتابعت: «ستفوتني الطائرة».

ـ هذا صحيح.

وافقها على ذلك ببشاشة، وهو يثير سحب الغبار بانطلاقه على الرمال.

ـ الأمر ليس مفرحاً، يا ماكس. خذني إلى المطار حالاً.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ لأنني أريد أن أدرك طائرتي طبعاً.

فقال بحزم: «حسناً، أريد أن أتحدث إليك، فإذا بقيت مصرة على السفر غداً، سآخذك إلى المطار وأشتري لك تذكرة جديدة.

ـ ولكن هذا جنون يا ماكس. إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى البحيرة. تتذكرين البحيرة، أليس كذلك يا كايرو؟

نظرت كايرو بعيداً. إنها تتذكر طبعاً. لماذا يعنفها بهذا الشكل؟

ـ لا أفهم لماذا تختطفني. سنحت لك الفرصة أمس للتحدث إلي، لو شئت ذلك.

ـ لم أستطع التحدث إليك بين كل أولئك الأناس الفظيعين.

قالت وهي غير قادرة على إخفاء مرارتها: «لم أكن أعتقد أنك تعتبر جاسمين فظيعة. في الواقع، بدوت مجنوناً بها فعلاً».

فقال بسرور: «أحقاً؟ لا بد أنني كنت ممثلاً بارعاً».

مضت لحظة صمت استوعبت كايرو فيها قوله هذا.

ـ ممثل؟

فقال بنظرة باسمة: «هل تصدقين حقاً أن فتاة مثل جاسمين تجذبني؟».

فقالت بعجز: «ولكن... لا أنهم. ولماذا تقوم بكل ذلك التظاهر؟».

ـ لكي أجعلك تغارين، طبعاً، ظننت ذلك واضحاً.

أوقف محرك السيارة فشملهما الصمت. جلسا في السيارة، وحيدين في تلك الصحراء الواسعة والسماء العميقة الزرقة.

ـ لا. لم يكن ذلك واضحاً.

قالت ذلك ببطء، وهي لا تجرؤ على الأمل. مال ماكس إلى الأمام متكئاً بذراعيه على عجلة القيادة. كانت التسلية في عينيه قد تلاشت، وحل مكانها الجدّ وشيء من الشرود. قال وهو لا ينظر إلى كايرو: «عندما رحلت، اشتقت إليك. حدثت نفسي بأنني مسرور لرحيلك. حدثت نفسي بأنك لا تنتمين إلى هذا المكان وأنك تفضلين بيرس. ومع ذلك بقي الشوق إليك».

وسكت وعيناه على الأفق البعيد: «بدت لي الصحراء خالية موحشة من دونك».

لم تستطع كايرو أن تتكلم. أخذت فقط تنظر إلى جانب وجهه، وهي تخاف من أن تسلم نفسها إلى الأمل مرة أخرى، وتابع بعد لحظة:

ـ أوضحت لي أن عملك هو أهم لديك مني. رجوت أن تكوني قد أحببت الصحراء، وتملكتني مرارة بالغة وأنا أراك لا تصبرين على العودة إلى لندن. وقررت أنني أحمق حتى لمجرد الظن بأنك تغيرت. وعندما تركتك عند المخيّم، كنت أريد فقط أن أنساك، لكنني لم أستطع. بقيت أتسكع في المكان متوقعاً أن أراك، أردت أن أسمع صوتك وأرى ابتسامتك. أردتك كثيراً.

وانخفض صوته للغاية.

ـ حتى أنه لم يعد لديّ مانع من أن أراك تنفعلين لأجل أدوات زينتك!

وأخيراً وجدت كايرو صوتها وارتجفت ابتسامة على شفتيها.

ـ لا أستطيع أن أصدق أنك اشتقت لذلك.

فقال: «كان ذاك الكيس جزءاً منك ولهذا اشتقت إليه أيضاً، وأخيراً أذعنت. كنت أعلم أنك ستعودين مع فريق التصوير. وبما أنني اعرف كل الموظفين في مينيست، علمت موعد وصولك. وبقيت في أنحاء المدينة فقط على أمل رؤيتك، وحالما رأيت جاسمين، أدركت أنها من الفريق، وهكذا تعرفت إليها. لم أكن واثقاً من رغبتك برؤيتي لكنني فكرت بأن أرافق أي شخص من المجموعة، لأجد فرصة أتحدث بها إليك».

ـ ولكن ما سر اهتمامك الكبير بجاسمين؟ لا بد أنك أدركت ما ظننته بكما.

ـ خطر ذلك ببالي عندما رأيت تبدّل ملامحك ما إن رأيتنا معاً.

وبدت على شفتيه ابتسامة.

ـ لديك وجه بالغ التعبير يا كايرو، ولو كانت النظرة تقتل، لوقعت جاسمين صريعة في مكانها. عند ذلك ابتدأ الأمل يتملكني، فلو لم تكوني مهتمة بي لما أحسست بكل تلك الغيرة، وهكذا أخذت أتملق جاسمين... ونجحت أكثر من اللازم! فلم تشأ أن تتركني، وفي النهاية أخبرتها أنه علي أن أقوم بعملٍ عاجلٍ، ولن أستطيع البقاء في مينيسيت لكي أراها تلك الليلة. الرسالة التي ظننتُ أنني أرسلتها، كانت الطريقة الوحيدة لأتخلص منها. وقد أخبرتني بأنك ستتخلفين عن السفر معهم إلى ما بعد الظهر، وهكذا قررت الإنتظار إلى أن سافروا جميعاً.

فنظرت كايرو إلى يديها: «هل أخبرتك أيضاً عن أبي؟».

ـ نعم. لقد أخبرتني. لماذا لم تخبريني أنت؟

وكان صوته دافئاً رقيقاً، وشعرت كايرو بعينيها تغرورقان فجأة بالدموع.

ـ كنت أعرف رأيك بالفساد.

قالت ذلك بصعوبة وهي تلوي أصابعها، كان يصعب عليها التحدث عن العار الذي شعرت به عندما اكتشفت لأول مرة، ما كان يفعله أبوها، وتابعت تقول:

ـ أدين أبي بالفساد وهو الآن يعاني من النتائج. لكنني عرفت بأنك لن

تتعاطف معه. فهو بالنسبة إليك، مثال لعدم نزاهة المدنية، لكنه بالنسبة إليّ، ما زال ذلك الأب المحب الكريم الذي كانه دوماً.

فقال ماكس: «قالت جاسمين إنك تعملين لتسددي عنه ديونه. أهذا سبب لهفتك لإنجاح هذه المهمة؟».

فأومأت تقول: «لا أستطيع التخلي عن أبي. عرفت أنه لم يفعل ما فعله إلا لكي يستمر في تدليلي، وهذا ما يشعرني بالمسؤولية».

وهمست بموجة مفاجئة من العذاب: «لطالما قلت لي إنني مدللة، فظننت أنك لو عرفت مصدر هذا الدلال، لربما ازداد احتقارك لي».

قال لها برقة: «أنا لا أحتقر الوفاء أبداً».

فقالت بمرارة: «قالت جاسمين إن الفزع بدا عليك حين أخبرتك عن أبي».

ـ هذا صحيح، ولكن فقط لأنني أدركت أنني أسأت الحكم عليك، وأقدمت على ما اتهمتك به طوال الوقت، وهو الحكم على المظاهر. حافظي على بهاء روحك وجمالها يا كايرو.

وتردد لحظة.

ـ لأنك رائعة الجمال وواثقة من نفسك، ظننتك تافهة مثل أمي... كان عليّ أن أكون أذكى من ذلك. كنت أملك فرصة كبيرة لأتأكد من شجاعتك. وعندما أخبرتني جاسمين عن أبيك، أدركت حجم وفائك أيضاً. وكم تألمت لأنني أخطأت في الحكم عليك.

واستقرت نظراته على وجهها: «أبوك رجل محظوظ جداً. إنني أحسده».

ـ أحقاً تحسده؟

وكانت عيناها متسعتين بحيرة. فقال: «نعم، نعم، أحسده».

وعاد ماكس ينظر إلى الأفق.

ـ لم أعطك أي سبب لتحبيني. لم أدللك وأرفهك مثل أبيك. كنت أصرخ بك وأنتقدك وأتعمد تصعيب الأمور عليك، آملاً أن تذعني وتثبتي لي أنك مثل كل فتيات المدينة اللاتي عرفتهن تفاهةً وخلواً من الجوهر. لكنك لم تذعني قط

وعبرت أسراب الجراد، وحفرت لإخراج «الجيب»، وكلما ازدادت شجاعتك، ازداد وقوعي في حبك.

وسكت لحظة.

ـ لم أكن أريد أن أقع في غرامك، يا كايرو. حاولت جهدي لأمنع نفسي من ذلك. فقد كنت كالشوكة في خاصرتي. كل ما فيك يبدو وكأنه خُلق فقط ليذكرني بأنك تماثلين أمي أنانيةً وتفاهةً وسطحيةً. لقد تذكرتك جيداً في الحفلة منذ سنوات، وشعرت بالضيق لأنني أميل إلى فتاة مثلك.

وتابع: «وتكرر السيناريو عندما لحقت بي إلى الصحراء مصممة على تحقيق ما تريدين. وكنت أنا أيضاً مصمماً على عدم الشعور بالمودة نحوك. لكنني كل ليلة كنت مضطراً إلى احتمال وجودك في الصحراء معي... مما جعلني سيء الطبع جداً!».

ـ ألم تتساءل قط عن سوء طبعي أنا أيضاً؟

سألته هذا وقد بدأت عيناها تتوهجان، فهز ماكس رأسه ببطء.

ـ لا. أعطيتك كل الأسباب التي تجعلك تكرهينني، فظننتك كرهتني فعلاً عند ساقية الماء في النجد... كان يبدو عليك التصميم على إنهاء مهمتك والعودة إلى الوطن. ظننتك متلهفة إلى الرحيل، وهكذا لم أحاول معك شيئاً. وبعد تلك الليلة عند البحيرة، عندما طلبت منك البقاء فرفضت، ظننت أنني أخطأت التقدير، لم أكن حينذاك قد عرفت بقصة أبيك وسبب اضطرارك للعودة إلى الوطن.

فقالت: «أنت طلبت مني البقاء يوماً واحداً فقط، فلم أستطع أن أخيب آمال الجميع لأجل يوم واحد، رغم رغبتي في البقاء».

ـ لم أكن أريد أن أخيفك بالتحدث عن البقاء إلى الأبد، فأنا لا أستطيع أن أوفّر لك نوع الحياة التي اعتدتها يا كايرو. لست من ذلك النوع العادي من الرجال. شعرت بأنني لا أستطيع أن أطلب منك التخلي عن كل شيء للبقاء معي في الصحراء. لم أشعر بأن عليّ أن أطلب منك ذلك، إلا بعد أن رأيت الطريقة التي نظرت إليّ بها أمس. قلت لي مرة إنك لم تتزوجي لأنك تنتظرين

رجلاً يحبك حقاً...

وسكت. لم تره يوماً ضعيفاً، عديم الثقة بنفسه كما هو الآن. كان قلبها ممتلئاً إلى حد أسكتها عن الكلام، وأساء هو تفسير صمتها، فقال: «أنا أعلم أن ما أطلبه كثير. وأنا متفهم لهذا، كل ما أردته هو أن تعرفي شعوري».

ومدّ يده إلى مفتاح السيارة.

- سآخذك إلى المطار الآن، يمكنك اللحاق بالطائرة بعد.

لم تستطع كايرو أن تصدق أنه بمثل هذا الغباء: «ماكس؟».

وأبعد شيء في صوتها أصابعه عن المفتاح. فاستقام في جلسته ببطء والتفت إليها. كانت عيناه تتألقان بأمل مفاجيء: «نعم؟».

مضت لحظة أخذت تنظر فيها إليه، متسائلة كيف تبدأ بالشرح له، ثم قالت ببساطة: «لا أريد أن أدرك الطائرة، لم أكن أريد أبداً أن أدركها».

خفق قلبها وهي ترى النظرة التي بدت في عينيه: «أتعنين أنك ستبقين؟ أتحبينني؟».

إبتسمت كايرو أخيراً، ابتسامة دافئة أشرق بها وجهها.

- من كل قلبي.

عمت الفرحة وجهه وشعر وكأنه امتلك الأرض وما عليها.

- أنت تحبينني إذن.

قال ذلك وكأنه اقتنع بذلك لتوّه، فقالت بصعوبة: «قلت لك إنني أحبك».

- وستتزوجينني؟ حالاً؟

- نعم... نعم.

وشهقت وقد سكرت بنشوة سعادتها حين علمت أنه يحبها.

- كنت تعسة جداً من دونك. لم أستطع تحمل فكرة الرحيل بدون كلمة وداع.

ومن بعيد، أخذت تنظر إلى طائرة تصعد في السماء الزرقاء فوق المطار. ولمعت الشمس كالفضة على جانحيها عندما اتجهت نحو الشمال.

قالت وقد تملكتها رجفة: «لو وجدت سيارة أجرة، لكنت الآن في هذه الطائرة. آه، يا ماكس. ربما ما كنت سأراك بعد ذلك على الإطلاق».

- هل تظنين أنني تركت ذلك للصدفة؟

نظرت إليه بحيرة.

- لقد دفعت لكل صاحب سيارة أجرة في مينيسيت أجرة الذهاب إلى المطار والعودة منه، وذلك لكي يرفض أخذك إليه.

قالت كايرو باشمئزاز: «ماكس! يا لك من مبذر مسرف».

- رأيتك تستحقين ذلك. وعلى كل حال، يمكنني دفع ذلك. فقد فكرت في أنني، في أسوأ الأحوال، أستطيع إقناعك بأن تتزوجيني لأجل أموالي، إن لديّ منه أكثر من أن أعرف ما أصنع به.

فقالت تتصنع توبيخه: «من المؤسف أنك لم تنفقه في إصلاح ذلك «الجيب»».

- إنها سيارة جيدة!

وعندما ضحكت كايرو، ضحك.

- ومن سوء الحظ فقط أنها تعطلت ذلك النهار، تمنيت لو استعملت هذه السيارة رغم كل شيء.

- ولماذا لم تستعملها؟ كانت ستريحنا أكثر بكثير!

- من باب الانتقام منك. فقد بقيت طوال السهرة تعبثين مع بروس، هل نسيت؟ وقد ذهبت الغيرة بعقلي، فقررت أن أجعلك تتألمين لهذا!

قالت بحزن وهي تتذكر كيف كانت تحفر حول الجيب لتخرجها: «وقد تألمت فعلاً».

- آسف. كنت فظيعاً ذلك النهار.

نظر إليها بحب خالص: «سأمضي بقية حياتي في استرضائك».

وتنهدت بسعادة، وهي تقول بابتسامة خبيثة: «لكنك ترضيني الآن».

- بالضبط.

فقالت تغيظه: «لم تكن سافلاً معي على النجد فقط. فبالنسبة لذلك المشهد البديع مع جاسمين... حسناً! عليك أن تجتهد جداً لأنساه!».

فقال بابتسامة عريضة: «سأبدأ ذلك حالما نصل إلى البحيرة».

ـ وعود، وعود!

ـ إذا لم ننطلق الآن، فلن نصل إلى البحيرة هذه الليلة.

قال ذلك، فعادت تستقر في مقعدها كارهة، بينما تحرك هو بالسيارة.

كانت البحيرة كما تتذكرها بالضبط، بحيرة خضراء هادئة.

وقفت تحدق في عمقها الصافي وهي تشعر بأن قلبها سينفجر من فرط السعادة. أرادت أن تنزل للسباحة على الفور، لكن ضوء النهار كان يتلاشى بسرعة، فأصر ماكس على نصب الخيمة أولاً.

قال: «لا نريد أن نتخبط في الظلام».

قالت فجأة: «ليس لدي حصيرة للنوم. كنت أعلم أننا سنقيم في فندق ولهذا لم أحضر معي شيئاً كهذا هذه المرة أيضاً».

ـ لدي واحدة إضافية.

قال ذلك وأخرج حصيرتين وصحنين، فقالت تتهمه: «كنت واثقاً جداً من حضوري».

فوقف وأمسك بيدها، ثم قال بجد: «لم أكن واثقاً على الإطلاق، يا كايرو. كنت أرجو ذلك فقط، لكنني علقت آمالي على تلك النظرة الملتهبة التي رمقت بها جاسمين. لم أكن واثقاً تماماً وكنت سآخذك إلى المطار على الفور لو كانت هذه رغبتك. لا أريد أن أفكر في الوحشة التي كنت سأمضي بها هذه الليلة لو أنك قررت الرحيل».

فقالت بهدوء: «لن أقرر هذا أبداً، ولكن عليّ العودة إلى الوطن يوماً ما، يا ماكس، ما زال عليّ أن أفكر في أبي».

ـ سنعود معاً. وسندفع ديون أبيك، ثم تخبرين بيرس أن يبحث عن شريكة غيرك. وإذا كان ذكياً، سيدخل جوانا في مشاريعه، إنها ليست بحاجة إلى العمل، ولكن، في وظيفة كهذه، ستحصل على الثقة بالنفس التي تحتاج إليها.

ويمكنها، بذلك، أن تبقي بيرس تحت المراقبة، أيضاً.

نظرت كايرو إليه بدهشة.

ـ أتعني أنك لم تعد معترضاً على زواجها من بيرس؟

ـ لا أمانع كما كنت أفعل، عندما ظننته على علاقة بك. كنت على صواب بقولك إنني أبالغ في حماية جوانا. لقد رعيتها منذ كنت في التاسعة من عمري، وأظنني تعودت على ذلك. كان من الأفضل أن أجعلها ترعى نفسها أكثر مما اعتادت.

فقالت كايرو: «لا أظنها ستجد فرصة للاستقلال لأن بيرس عازم على رعايتها، هو أيضاً».

ـ لقد كتب إليّ. قال إنه فهم موقفي من زواجهما... لكنه يحبها ولن يستعجلها في شيء قبل أن يثبت أنه ناجح في أعماله.

وضحك ماكس ساخراً.

ـ ولكن إذا كانت جوانا مصرّة على الزواج منه فسأقبل مسروراً.

ثم تنهد وتابع: «حتى إنه كان من الوقاحة بحيث أنهى رسالته بقوله إنه علم بأنني تعرفت إلى شريكته، الآنسة كينغسوود، وسيكون شاكراً جداً إذا قدمت لها ما تحتاجه من عون!».

فضحكت: «لم أخبره بما قمت به لأجلنا».

فقال مصححاً كلامها: «بل لأجلك. فكيف ستظهرين لي شكرك؟».

ضحكت بطريقة ماكرة: «سأفكر في شيء ما».

ابتسم وقال: «إبدئي الآن بالتفكير».

* * *